



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثانى

الحزب الثامن والعشرون

الطبعة الاولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م



التفسير الوسيط

للقرآن الكريم

تأليف

لجنة من العلماء

بإشراف

مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر

المجلد الثاني

الحزب الثامن والعشرون

الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م

القاهرة

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

١٩٨٢

(﴿ * وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾)

المفـردات :

(فَارْهَبُونِ) : أى فخافون واخشوا عقابى إن خالفتم أمرى .

(وَلَهُ الدِّينُ) : وله الطاعة والانقياد أو الجزاء ، مِن دِنْتُهُ أىجازيْتُهُ .

(وَاصِبًا) : واجبًا لازمًا ، وفسّره الربيعُ بن أنس بقوله : « واصِبًا » خالصًا .

التفسير

٥١ ـ (وَقَالَ اللهُ لَاتَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ) :

حذر الله فى الآيات السابقة أهل مكة من عاقبة كفرهم بما أنزله على رسوله ، من أن يصيبهم مثل ما أصاب المكذبين بالرسل قبلهم ، من الخسف أو إتيان العذاب من حيث لا يشعرون ، أو أن يأْخذهم فى تقلبهم ونشاطهم بغير مقدمات ، أو يأْخذهم على تخوف من الهلاك بأَن يرهبهم قبله بمقدمات مخيفة ، وأتبع ذلك توبيخهم على أنهم لم يتفكروا فيما خلقه من الأَشياء التى تنتقل ظلالها عن اليمين وعن الشمائل ، من الجبال والأَشجار وغيرها ، منقادة لله تعالى فى أمرها كله ، وبيَّن أنه ـ سبحانه ـ يسجد له ما فى السموات والأَرض من دابة ، وكذلك الملائكة مع رفعة شأْنهم ، فإنهم يطيعون ربهم فلا يعصونه ، بل يفعلون مايؤْمرون .

وجاءت هذه الآية لتأْمر أهل مكة وغيرهم بتوحيده بالعبادة والخوف من التقصير فيما كلفهم به ، فإن منْ هذا شأْنه لا يعبد سواه ، ولا يخاف غيره . وقد كان مشركو قريش وغيرهم يعترفون بأُلوهية الله ، ولكنهم كانوا يتخذون معه شركاء لتُقرِّبهُمْ إليه ، وهم مع ذلك يعتقدون أن الله يملكها ، فهذه قبيلة نزار مثلًا كانت تقول فى تلبيتها فى الحج : «لبيك اللهم

لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إلا شريكٌ هُو لك . تملكه وما ملك » فهم يوحدونه بالتلبية ، ويدخلون معه آلهتهم ، ويجعلون ملكها بيده ، وفى مثل ذلك يقول الله تعالى :

« وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُون » . وكانت لهم أصنام مشتركة ، وأخرى لطائفة دون أخرى ، أو لبيت دون آخر . ولما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد الحرام يوم فتح مكة ، وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنمًا فجعل يطعنها بِسِيَةِ[1] قوسه فى عيونها ووجوهها وهو يقول : « جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا » ثم أمر بها فكُبَّتْ على وجوهها . ثم أُخرجت من المسجد ودُمِّرت .

ومعنى الآية :

وقال الله الذى عرفتم سلطانه فى هذا الكون : لاتتخذوا يا عبادى لكم إلٰهين اثنين فضلًا عما فوقهما إنما الإلٰه إلٰه واحد لا شريك له . إذ « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا » .

ثم التفت النص الكريم من الغَيْبَةِ إلى التكلم . لِتربيةِ المهابة والرهبة فقال :

(فَإِيَّاىَ فَارْهَبُون) : أى إن كنتم ترهبون شيئًا وتخافون منه . فإياى ارهبوا وخافوا دون سواى . فليس غيرى أحقّ بالرهبة . فارهبونى فإننى أنا الواحد الذى يسجد له ما فى السموات والأرض ويخضع لسلطانه .

ثم بين الله سبب وجوب توحيده بالعبادة والرهبة بقوله :

٥٢ - (وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا) :

أى ولله وحده كل ما فى السموات والأرض ، من أجزائهما وما استقرَّ فيهما ، له كل ذلك خلقًا وملْكًا وتصرفًا . وله الطاعة والانقياد واجبًا ثابتًا لايستحقه سواه . لِما تقرَّر من أنه الإلٰه الواحد الحقيقُ بأن يُرهب .

وعلى تفسير الدين بالجزاء يكون المعنى : وله الجزاءُ دائمًا ، فلا ينقطع ثوابه عمّن آمن وعمل صالحًا ، ولا عقابه عمن كفر وصدَّ عن سبيله .

---

(١) سية القوس : ما عطف من طرفيها .

ثم استنكر الله أن لا يتقى المشركون مَن هذه آيات عظمته فقال سبحانه :

(أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ) :

أى أبعد ما تقدم بيانه من أن كل ما فى السموات والأرض يسجد ويخضع لله ، وأن الطاعة واجبة له ، والجزاء حق من حقوقه ، أبعد ما ذكر تخُصُّون غير الله بالتقوى ؟ مع أنه -تعالى- هو المستحق لها دون سواه ، ثم أنكر عليهم شركهم مع توالى نعمه عليهم فقال سبحانه :

(وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾)

المفردات :

(تجْأَرُون) : تتضرعون ليكشف عنكم الضر . والجُؤار : رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة .(١)

(فَتَمَتَّعُوا) : أمر تهديد لهم وليس أمر إباحة . ●

التفسير

٥٣ - (وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تجْأَرُونَ) :

المعنى : وما يصاحبكم من نعمة فى أنفسكم وأموالكم وأولادكم فهى صادرة من الله تعالى ، مدبرها وخالقها ورازقها ، ثم إذا أصابكم الضرر إصابة يسيرة فإليه وحده تتضرعون مستغيثين

---

(١) قال الأعشى :

يُراوحُ من صلواتِ المليـ ـكِ طورًا سُجُودًا وطورًا جُؤارًا

ابتغاء كشفه عنكم ، فكيف تشركون معه شركاءكم فى العبادة ، وليس لها فى نفعكم ودفع الضر عنكم من سبيل ؟ ثم نعى الله عليهم عودتهم إلى الشرك بعد أن كشف الضرَّ عنهم فقال سبحانه :

٥٤ - (ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ) :

أى ثم إذا كشف الله الضر عنكم بعد تضرعكم واستغاثتكم ، إذا جماعة منكم يشركون بربهم أصنامهم فى العبادة ، مع أنها لا دخل لها فى نفعهم ودفع الضر عنهم .

والخطاب فى قوله : « وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ » وقوله : « إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ » الآيتين ، إن كان للمشركين كما هو الظاهر فلفظ « مِن » فى قوله : « إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُمْ » لبيان أنَّ الفريق الكافر هو كلهم ، فكأنه قيل : إذا فريقٌ كافرٌ هُمْ أنتم . وأجاز بعض المفسرين أن يكون مِنْهُمْ مَن اعتبر وازدجر ، فتكون « مِنْ » على هذا الرأى للتبعيض ، كما فى قوله تعالى : « فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ » .

أما إن جُعل الخطاب فى الآيتين للناس كافة . فالكافرون بنعمه وفضله بعضهم لا كلهم فتكون « مِنْ » فى قوله : « إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ » للتبعيض لا للبيان . ثم بين الله عاقبة إشراكهم فقال :

٥٥ - (لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) :

أى أن فريقًا منهم يشركون بالله فى العبادة مع توالى نِعَمِهِ عليهم ودفع نِقَمِهِ عنهم ، لتكون عاقبةُ شركهم وأثرُه أن يكفروا بما آتاهم من النعم ، وَيُنكِرُوا كونها منه دون غيره ، ثم أنذرهم الله وهدَّدهم بسوء المصير فقال :

(فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) :

أى فاستمتعوا بما أنتم فيه من نعم كفرتم بها ولم تشكروها . فسوف تعلمون عاجلًا أو آجلًا عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب جزاء شرككم وكفرانكم .

ثم عقب هذا الوعيد بتعداد جناياتهم المستوجبة له فقال سبحانه :

(وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾)

المفردات :

(لِمَا لَا يَعْلَمُونَ) : لآلهتهم التي لا يعلمون حقيقتها وخِسّة قدرها .

(تَاللهِ) : قسم ؛ أي والله .

(تَفْتَرُونَ) : أي تختلقونه من الأكاذيب .

(مُسْوَدًّا) : المراد من اسوداده ؛ كآبته واغتمامه على سبيل الكناية .

(كَظِيمٌ) : ممتلئ غيظًا .

(أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ) : أيبقيه على هوان وذل .

(أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ) : أم يخفيه ويدفنه فيه .   (مَثَلُ السَّوْءِ) : صفة القبح .

التفسير

٥٦ - (وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ) :

أي أن المشركين حين يكشف الله الضرَّ عنهم بعد تضرعهم إليه واستغاثتهم به ، يعودون فجأة إلى الشرك ، ويجعلون لأصنامهم التي لا يعلمون حقيقتها وقدرها الخسيس

-يجعلون لها- نصيبًا مما أعطاهم الله من الزروع والأنعام وسائر الأرزاق ،تقربًا إليها ، وما لها عليهم من فضل ، ولا لها عليهم من سبيل ، ولا هى مدركة ما يُتَقَرَّبُ به إليها ، ثم ختم الله الآية بوعيدهم فقال :

(تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ) :

أى وحقّ الله المنزه عن الشريك والمثيل ليسألنكم الله سؤال توبيخ وحساب يوم القيامة ، عن الذى كنتم تختلقونه فى الدنيا من شركة أوثانكم لله ، واستحقاقها للعبادة معه ، ثم يجزيكم على افترائكم .

٥٧ - (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ) :

كانت خزاعة وكنانة يزعمان أن الملائكة بنات الله . وقد انطوى هذا الزعم على فريتين : إحداهما :أن الملائكة إناث ، وثانيتهما : أنهم بنات الله . فأما الزعم الأول فقد ردَّه الله بقوله : «وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ »[1] . وأما الزعم الثانى فقد ردَّه الله بهذه الآية .

والمعنى : ويجعل المشركون البنات لله حيث يزعمون أن الملائكة بنات الله - سبحانه وتنزيهاً له عن هذا الزعم الفاسد - والحال أنهم يجعلون لأنفسهم ما يحبون من البنين . فهم بذلك يختارون لأنفسهم فى التبنِّى ، أفضل مما يختارون لربهم ، تعالى الله عن التبنى بجانبيه علوًّا كبيرًا .

ثم يُوبِّخُهم الله على هذه النسبة أكثر مما مضى وأصرح فيقول :

٥٨ - (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا) : أى وإذا أُخبر أحد هؤلاء بولادة أُنثى له ، صار وجهه قاتم اللون كأنما علاه السواد غيظاً من شدَّة الغمِّ والحياء من الناس كأنما ارتكب ما يخجله . (وَهُوَ كَظِيمٌ) : أى وهو ممتلىءٌ غيظًا وغضبًا ، ثم يبلغ به الخجل من البشارة بالأُنثى إلى ما حكى الله بقوله :

(١) سورة الزخرف ، الآية : ١٩

٥٩ ـ (يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ) :

أى يستخفى من قومه حتى لايروه بسبب ما بُشِّرَ به من السوء حينما أخبروه بولادة أنثى له وجعل يحدث نفسه فى شأنه (أَيُمْسِكُهُ) فلا يقتله . ويظل يمسكه (عَلَى هُونٍ) : على ذلٍّ وهوانٍ . (أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ) :بأن يحفر له فيه حُفْرةً فيدفنه فيها حيًّا . ويهيل التراب عليه كما كانوا يقولون : وأد البنات من المكرمات . وإذا كان هذا حالهم فى كراهة نسبة البنات إلى أنفسهم فكيف ينسبونها إلى الله . إذ يحكمون بأن الملائكة بناته . ولهذا قبح الله حكمهم هذا فقال :

(أَلَا سَاءَ مَايَحْكُمُونَ) : أى ألا قبُح حكمهم حيث يجعلون ما هذا شأنه من الحقارة والهوان لديهم ـ يجعلونه وينسبونه ـ لله المنزه عن الصاحبة والولد ذكراً كان أو أنثى فى حين أنهم يتحاشون الإناث . ويختارون لأنفسهم البنين .

فمدار الخطإ نسبتهم البنات لله وهم يأبون ذلك لأنفسهم فى حين أنه منزه عن الولد مطلقًا ذكرًا كان أو أنثى ، ولذا قال ـ سبحانه ـ عقب ما تقدم :

٦٠ ـ (لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى وهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) :

أى لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة والحساب فيها على ما افتروه ـ لهم ـ صفة القبح . من الحاجة إلى الولد ليقوم مقامهم ويرثهم عند موتهم ، وحب البنين دون البنات للاستظهار بهم والانتفاع بكدهم . ووأد البنات خوفًا من العار وحذرًا من الفقر ، ولله ـ تعالى ـ المثل الأعلى والصفة العظيمة الشأن من الاستغناء المطلق عن الولد ذكرًا كان أو أنثى . فهو الغَنِيُّ المطلق الْغِنَى فى أمره كله ، المنزه عن الحاجة إلى الصاحبة والولد ذكرًا كان أو أنثى ، المستوجب لكل كمال ، المنزه عن كل نقص ، وهو العزيز الغالب القادر على مؤاخذتهم . الحكيم فى كل شئونه ، فلهذا لم يعاجلهم بالانتقام منهم ، لعلهم يثوبون إلى رشدهم . ولهذا قال الله تعالى عقب ذلك :

(وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾)

المفردات :

(مِن دَابَّةٍ) : الدابة ما يدب على الأرض ، وقيل المراد بها هنا : الكافر ، وسنفصل الكلام فى ذلك فى التفسير . (وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى) : ولكن يُؤَخِّرُ موتهم إلى وقت سماه الله لذلك فلا يموتون قبله . ويجوز أن يكون المراد . ولكن يؤخر عذابهم إلى أجل مسمى ، وهو إما موتهم حيث يعذبون فى قبورهم أو يوم القيامة ، فهو الأجل الذى سماه الله فى لسان الشرع لجزاء الناس كما فى قوله تعالى :

« وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » .

(لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ) : أى لا يتأخرون عن الأجل المسمى أقل زمن ، ولا يتقدمون ، والتعبير عنه بالساعة ، لأنها فى لغة العرب مَثَلٌ فى القلّة . وليس المراد بها الساعة المعروفة عندنا فى عصرنا والمقدرة بستين دقيقة . لأن ذلك اصطلاح مستحدث .

التفسير

٦١ - (وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ) :

بيّن الله تعالى فيما تقدم ماكان عليه المشركون من الضلال مثل زعمهم أن الملائكة بنات الله ، مع أنهم يكرهون البنات ويستاءون من البشارة بهنّ ويدُسُّونهن أحياء فى التراب ، وأتبع ذلك تنزيهه تعالى عن ذلك وعن نسبة الولد إليه سواء أكان ذكرا أم أنثى ، وبين سوء حكمهم

هذا . وأن له تعالى الصفة العلية الشأن التي هي مثل في العلوّ والرفعة . وأن ما وصفوه به لايليق به جل وعلا . فهو غير محتاج إلى الولد مطلقًا، لا ليَرِثهُ ولا ليُعِينه فهو الحى الذى لايموت العزيز الحكيم. فليس بحاجة إلى ولد يعتز به، أو يدبر معه ملكوته . وأن أولئك المُتجنِّين على ربِّهم لهم صفة القبح وهي الحاجة إلى الولد ليقوم مقامهم عند موتهم فهم أهل الفناء، أما الله تعالى فله صفة الحسن وهي كمال الاستغناء .

وجاءت هذه الآية لتبين رحمة الله بالناس حيث لايعاجلهم بالعقوبة الشاملة بسبب تماديهم فى ظلمهم بل يؤَخرهم إلى أجلٍ مُسمى لعلهم يثوبون إلى رشدهم. قبل أن يحين أجلهم.

والآية تحتمل معنيين . أحدهما : ولو يؤَاخذ الله الكفار بكفرهم ومعاصيهم التى تحدثت الآيات السابقة عن بعضها. ما ترك على هذه الأَرض من دابةٍ كافرة . حيث يهلكهم بشؤْم كفرهم ومعاصيهم . ولكنه لم يفعل رحمة بهم لعلهم يرجعون إلى رشدهم. ويكفون عن كفرهم ومعاصيهم .

وإطلاق الدابة على الإنسان لغوى . مأْخوذ من دبَّ على الأَرض أى مشى عليها فى هِينةٍ وتمهُّلٍ . فالإنسان نفسٌ دابةٌ على الأَرض . قال الشاعر العربى :

زعمتنى شيخًا ولستُ بشيْخ إنمـــا الشَّـــيخُ من يدُبُّ دبيبًا

والمعنى الثانى : يتجه بالإهلاك إلى عموم مايدب على الأَرض، أى ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبه أهل الذنوب منهم ماترك على الأَرض من إنسان طالح أَو صالح ولاترك عليها غيره من دواب الأَرض . بسبب شؤْم أهل الذنوب . قال ابن مسعود فى تفسيرها : ولو أَخذ الله الخلائق بذنوب المذنبين لأَصاب العذاب الجُعْلَان[1] فى جحرها . ولأَمسك الأَمطار من السماء، والنَّبات من الأَرض فماتت الدواب ولكن الله يأْخذ بالعفو والفضل : كما قال : « وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ » .

(١) جمع جعل بوزن صرد : دابة سوداء من دواب الأرض .

ولعل مما يساعد على إرادة العموم ما جاء فى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال: « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إذا أراد اللهُ بقوْمٍ عذابًا أصاب العذابُ من كان فِيهِمْ ثُمَّ بُعِثُوا عَلَى نِيَّاتِهِمْ » وقوله تعالى: «وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ».

وبعد أن بيَّن الله شؤم المعصية وما تجره على أهل الأرض من الآثار عقب ذلك ببيان رحمته بعباده فقال :

(وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى) :

أى ولكن يؤخر إهلاكهم إلى أجل عيَّنهُ لذلك لعلهم يطيعون ربهم وينجون من عذابه ، فإنه تعالى خلقهم ليعبدوه وهداهم بالآيات والرسل إلى طريق معرفته وطاعته ، فلا عذر لهم فى عصيانه .

ثم بين أن أجلهم آتٍ لا ريب فيه ولا تغيير له بتقديم أو تأخير ، لعلهم يسارعون فى التوبة فقال : (فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُون سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُون) : أى فإذا جاء الوقت المحدد لموتهم لا يتأخرون عنه أقل وقتٍ ولا يتقدمون .

فإن قيل : إن وقت إهلاكهم إذا جاء لا يتصور تقدمهم عنه ، فلماذا قيل : «وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » فالجواب أن ذكره للمبالغة فى بيان عدم تأخره بنظمه فى سلك ما يمتنع تنبيهاً على أنه مثله فى الامتناع . كما فى قوله تعالى : « وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ » فإن من مات كافرًا معلوم بالضرورة أنه لا تقبل توبتُه بعد موته ، وليس بحاجة إلى التصريح به ، ولكنه ذكر مع من لا تقبل توبته عند الغرغرة ومشارفة الموت للإيذان بأنهما سواء فى عدم قبول التوبة ؛ لأنها حدثت منه بعد يأسه من الحياة ، فكان مِثْل من مات كافرًا فى أنه لا توبة له.

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ۚ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾)

المفردات :

(وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ) : أى ينسبون إليه البنات التى يكرهونها لأنفسهم — (وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ) : أى تحكى الكذب بادعائها أن لهم العاقبة الحسنى فى الآخرة . (لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ) : لا بُدَّ ولا محالة[1] . (مُفْرَطُونَ) : متروكون منسيون فى النار . كما قاله ابن الأعرابى وأبو عبيدة وغيرهما .[2] وقال الحسن وقتادة : مُعجَّلون إلى النار مقدمون إليها ، وأصله من أفرطته أى قدمته فى طلب الماء ، والفرط الذى يتقدم إلى الماء . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ » أى متقدمكم إليه .

(تَاللَّهِ) :أى وحقِّ الله . (وَلِيُّهُمَ) : أى متولى إغوائهم أو ناصرهم .

---

(١) نقل القرطبى فى جـ ٩ ص ٢٠ دار الكتب فى تفسير قوله تعالى فى سورة هود: « لا جرم أنهم فى الآخرة هم الأخسرون » الآية ٢٢ أن (لا جرم) عند الخليل وسيبويه كلمة واحدة بمعنى (حق) وأنها فى موضع الرفع على أنها خبر مقدم وأن وما دخلت عليه فى تأويل المصدر مبتدأ مؤخر ، وأن الفراء قال بذلك كما حكاه النحاس ، وحكى المهدى عن الخليل أيضا أن معناها لا بد ولا محالة ، وحكاه الثعلبى عن الفراء أيضا وقد اخترنا هذا المعنى فى تفسيرها هنا ، وفى معناها آراء أخرى وحسب القارئ ما ذكرنا ومن شاء المزيد فليرجع إلى جـ ٩ ص ٢٠ من القرطبى فى تفسير مثلها فى سورة هود — كما تقدم — .

(٢) من أفرطت فلانا خلفى إذا خلفته ونسيته .

التفسير

٦٢ - (وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى) :

أنكر الله عليهم فى الآيات السابقة زعمهم أن الملائكة بنات الله ، وبيَّن أنه منزه عن الولد مطلقًا وأنه لو يؤاخذ الناس بما كسبوا من السيئات لعاقبهم بعقوبات تعُمُّهُمْ وغيرهم بشؤم ظلمهم ، ولكنه - تعالى - عظيم الحلم شامل الرحمة ، فيؤخرهم إلى وقتٍ سمَّاه لموتهم لايتقدمون عنه ولا يتأخرون ، لعلهم يعودون إلى الرشد ، ويدركهم الهدى .

وجاءت هذه الآية لتوبيخهم مرة أُخرى على ما زعموه فى حقه -تعالى- وما ادعوه لأنفسهم من العاقبة الحسنى ، ولإنذارهم بسوء المصير على مزاعمهم وعقائدهم .

والمعنى : وينسبون لله البنات التى يكرهونها لأنفسهم ، ومع هذه الجريمة الشنعاء فى حق الله تقول ألسنتهم الكذب وتصفه وتصوره حين تزعم أن لهم العاقبة الحسنى - ثم عقب الله زعمهم هذا بالوعيد عليه فقال :

(لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ) : أى لا بد ولا محالة من أن لهم النار مكان ما زعموه لأنفسهم من أن لهم العاقبة الحسنى . ولا بد أنهم منسيون فيها متروكون فى سعيرها لايخرجون منها ولا يبرحونها .

ثم عقب الله هذه الآية بتسلية النبى صلى الله عليه وسلم على مايلاقيه من قومه من ألوان الكفر والضلال . بأن مايحدث له منهم حدث مثلُه للرسل قبله من أممهم . وذلك بقوله تعالى :

٦٣ - (تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

أى والله لقد بعثنا رسلنا إلى أمم من قبلك أيها الرسول ، فحدث منهم لرسلهم مثل ما حدث من قومك لك ، حيث زين لهم الشيطان ما هم عليه من أعمالهم القبيحة من الكفر والمعاصى ،

فظلُّوا مصرِّين عليها ، فهو متولى إغوائهم اليوم أى فى العصر الذى كانوا يعيشون فيه ، ولهم فى الآخرة عذاب شديد الإيلام ، ولا يجدون فيها من ينقذهم أو يخفف عنهم ، ويجوز أن يكون المقصود باليوم يوم القيامة ، والولاية بمعنى النصرة على سبيل التهكم .

والمعنى : فالشيطان الذى أغواهم وزيَّن لهم أعمالهم ناصرهم يوم القيامة ، ومن كان الشيطان ناصره يومئذ فهو خالد فى العذاب مثله . لأنه مذنب ومعاقب وفاقد لأسباب النصرة ، ولهذا ختم الله الآية بقوله : (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) .

وأعاد بعض المفسرين الضمير إلى مشركى قريش ؛ والمعنى : ولقد أرسلنا رسلنا إلى أُمم من قبلك فزين الشيطان لهم أعمالهم فصدهم عن السبيل فهو ولى مشركى قريش اليوم كما كان ولى مَنْ قبلهم فى أيامهم ، فإنهم مثلهم فى ضلالهم ولهم فى الآخرة عذاب أليم كما كان لمن قبلهم ، ثم بيَّن أثر القرآن فى تبيين الحق من الباطل فقال :

٦٤ - (وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُون) :

أى وما أنزلنا عليك القرآن أيها الرسول لسبب من الأسباب إلا لتبين للناس ما اختلفوا فيه من التوحيد واليوم العظيم الذى هم فيه مختلفون . كما تبين لهم النافع والضار من الأخلاق . والحلال والحرام من الأعمال ، وأنزلناه أيضا للهدى والرحمة لقوم يؤمنون ، فإنهم المنتفعون بعلومه . المهتدون بهداه ، ويصح أن يراد منهم المستعدون للإيمان المهيَّئون له بما آتاهم الله من حسن النظر فى آياته ، فكأنه قال : وهدى ورحمة لقوم شأنهم أنهم يصدقون الحقَّ ويؤمنون به ، بما جُبِلُوا عليه من البحث عن الحق والاهتداء إليه بآياته ، والبعد عن الجدال بالباطل ، ثم شرع الله فى ذكر طائفة من آياته العظيمة الشأن فقال :

(وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾)

المفردات :

(أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ) : أى من السحاب ، وكل ما علاك يطلق عليه سماءٌ .

(بَعْدَ مَوْتِهَا) : بعد يبسها . (الأنعام) :الإبل خاصة ، وقيل : إذا كان معها بقر وغنم فهى أنعام أيضًا ، وقال أحمد بن يحيى : هى كل ما أحله الله من الحيوان[1] لقوله تعالى فى سورة المائدة : « أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّى الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ » .

(نُسْقِيكُم مِّمَّا فى بُطُونِهِ) : أى مما فى بطون جنس الأنعام[2] من اللبن ، والمراد من البطون هنا الضروع . (فَرْثٍ): هو ما فى الكرش من بقايا العلف بعد هضمه .

---

(١) انظر القرطبى ج ٧ ص ١١١ طبعة دار الكتب – فى تفسير قوله تعالى « ومن الأنعام حمولة وفرشا » من الآية ١٤٢ من سورة الأنعام .

(٢) قيل : إنها جمع نعم ، وأفرد ضميرها ، لأن «أل» الجنسية تبطل الجمعية ، أما من يجعلها من المفردات التى جاءت على هذا الوزن كأكياش وأخلاق أو اسم جمع فيكون إفراد الضمير إما لكونه مفردا أو لمراعاة لفظ اسم الجمع : انظر أبا السعود وغيره هذا : والأكياش من الثياب ما أعيد غزله مثل الخز والصوف ، أوهو الردئ ، والأخلاق من الثياب ماعمه البلى : يقال ثوب أخلاق أى عمه البلى . وثوب أكياش أى أعيد غزله أوردىء .

(سَائِغًا) : هنيئًا لا يُغصُّ به شاربُه .

(سَكَرًا) : ما يُسْكِرُ وهو الخمر ، قال ابن عباس : نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر – وسيأْتي لذلك بيان أوسع وتأْويل أفضل – إن شاء الله تعالى – .

التفسير

٦٤ – (وَاللهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ) :

تضمنت هذه الآيةُ الكريمةُ شواهد عظيمة الدلالة على أنه –تعالى– هو الجدير بالأُلوهية والعبادة له دون سواه ، فقد أرشدت أصحاب الفكر الرشيد إلى أن هذه السماء التى نشاهدها خالية من الماء ، صافية الأَديم يسوق الله برحمته السحاب تحتها ويزجيه بعد أن كوَّنه من أبخرة المياه ، وجعله ركامًا ، ثم يبسطه فى جو السماء كيف يشاءُ ، ويصيب به من يشاءُ من عباده ، فيحيي به الأَرض بعد موتها ، ويبسط فيها الزرع النضير ، وينبت فيها الأَشجار ذات الأَزهار والثمار ، إن فى ذلك لعبرة لأُولى الأَسماع والأَبصار .

ومعنى الآية إجمالًا : والله أنزل من السماء ماءً بقدر معلوم ، على الأَرض اليابسة التى تشبه الموتى فى عدم جدواها ، وتوقف الانتفاع بها ، فلما أنزل الله الماء عليها دبَّت فيها الحياة ، حيث اخضرَّت وَرَبَتْ وأَنبتت من كل صنف بهيج ، إن فى ذلك لعلامة واضحة الدلالة على أُلوهيته ووحدانيته ، يبيِّنها لقوم يسمعون التذكير به سماع تدبرٍ وتفكرٍ ، ثم أَتبعها آية أُخرى باعثة على توحيده فقال :

٦٥ – (وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ) :

أَى وإن لكم أَيها العقلاءُ الذين تحسنون الاستماع وتفكرون فى الشواهد والآيات التى تُذكَّرُون بها – إن لكم – فى الإبل والبقر والغنم والمعز لعظة عظيمة الشأْن حيث تشاهدون أننا نسقيكم مما فى أجوافها لبنًا أبيض خالصا مما يُؤَثِّر فى بياضه أَو ريحه أَو طيب طعمه سائغًا

للشاربين ، مع أننا أخرجناه من بين فرث وهو مافى الكرش من روث كريه الرائحة ، ودم أحمر لا يستسيغه الطبع الإنسانى .

فأنت ترى أن الأنعام تتناول أعلافَها جافةً ورطبة ، فتمضغها وتزدردها ، فيحولها القادر الحكيم بما تفرزه كبودها وأجهزتها الهاضمة من العصارات - يحولها - إلى دم أحمر يدفعه القلب بنظام رتيب إلى أجسادها لتغذيتها ، وروث تدفعه كروشها إلى أمعائها الغلاظ ، لتتخلص منه آنًا بعد آن .

وهذا الدم القانى يتجه بتدبير الله وحكمته إلى ضروع الإناث منها ، تلك الضروع التى هيَّأها الله بقدرته وأعدَّها لتحويله إلى لَبن خالص من كل شائبة من تلك الشوائب التى مرَّت بها عملية الهضم والتحويل ، فلا ترى فى بياضه حمرة الدم ، ولا فى طعمه أثرًا لطعوم الأعلاف والدماء والفرَث ، ولا تحسُّ برائحةٍ كريهة من هذه الروائح التى احتبست فى أجوافها ، بل تجده لبنًا أبيض ناصعا خالصًا سائغًا للشاربين فتبارك الله أحسن الخالقين .

٦٦ - (وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا) :

قال القرطبى : السكر مايُسْكِرُ فىمشهور اللغة ، ونقل عن بعض السلف أن هذه الآية نزلت قبل تحريم الخمر ، وأن المراد بالسَّكَرِ الخمر ، وبالرزق الحَسَن مايُؤْكل ويُشرب حلالا منهاتين الشجرتين ، وذلك لأن السورة مكية ، ولم تحرم الخمر فيها وإنما حرمت فى المدينة ، ولست أدرى كيف دُسَّ هذا الرأى على أولئك الأعلام من السلف . وكيف أُقحم فى كتب التفسير ليقرأه القارئون تفسيرًا لآية من كتاب الله منقولا عنهم . فإما أن يسلموا به تقديرًا لجلال من نسب إليهم وإما أن يقولوا ما لايحل فى كتاب الله : حيث يقولون إن هذه الآية نزلت يمتن فيها الله على عباده بما أنعم به عليهم فى النخيل والأعناب من السكر والرزق الحسن ، فكيف عدل عن استحسان الخمر والامتنان بها فى مكة إلى استرذالها وتحريمها فى المدينة وهى هى بعينها لم يزد عليها ولم ينقص منها شىءٌ ، فإما أن تكون فى

ذاتها قبيحة ضارة فتكون حرامًا دائمًا وإما أن تكون حسنة نافعة فتكون حلالا دائمًا ، فلا يتغير حكمها بتغير المكان .

والصواب : ما قاله الطبرى فى معنى الآية وهو أن السَّكر مايُطْعَمُ من طعام النخيل والأعناب ويحل شربه من ثمارها ، وهو الرزق الحسن ، فاللفظ مختلف والمعنى واحد مثل : « إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللهِ » فالبثُّ والحزن بمعنى واحد ، وبهذا قال أبو عبيدة ، حيث قال : السَّكر الطُّعم . يقال : هذا سَكَرٌ لك : أى طُعْمٌ .

وقال آخر – كما نقله القرطبى – السكر العصير الحلو الحلال ، وسمى سكرًا لأنه قد يصير مسكرًا[1] إذا بقى ، فإذا بلغ الإسكار حُرِّم – قلت وقد جمع صاحب القاموس بعض ما تستعمل فيه كلمة السَّكر من هذه المعانى وغيرها فقال . والسَّكرُ – محركة – الخمر ونبيذ يتخذ من التمر ونحوه ، وكل ما يسكر وما حرم من ثمرة ، والخل والطعام والامتلاء والغضب والغيظ : اهـ بتصرف .

وبما أن الآية للامتنان فالأنسب بمعنى السَّكر فيها ما يحل من طعام النخل والعنب وشرابهما وإليك فيما يلى المعنى الإجمالى للآية الكريمة :

ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه عصيرًا حُلوا حلالا ، ورزقًا حسنًا منحكم الله إياه منهما ، من رطب وتَمْر وعنب وزبيب ، وغير ذلك من الأطعمة والأشربة ، كالبسر والدبس[2] ، والخل وأصناف الحلوى .. التى تصنع منهما إن فى ذلك لعلامة باهرة على قدرة الله ووحدانيته وكرمه وفضله ، وهذه الآية والعلامة على ما ذكر موجهة لقوم يستعملون عقولهم فيدركون أنه لا إلـه سواه ، ولا يستحق العبادة غيره .

---

(١) هكذا قيل ، ولكننا نقول : لماذا لا تكون تسميته سكراً أخذاً من السكر (بتشديد السين المضمومة وتشديد الكاف المفتوحة) فإن أخذه منه يناسب كونه بمعنى العصير الحلو الحلال ، أما تعليل التسمية بأنه قد يصير مسكراً ، فإنه لا يناسب المقام .

(٢) الدبس (بكسر الدال المشددة) : عسل التمر – من القاموس .

(وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾)

المفردات :

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ) : ألهمها وعلمها .

(وَمِمَّا يَعْرِشُون) : أى وما يهيئه الناس من العرائش والسقف والبيوت والخلايا .

(فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ) : فادخلى طرق ربك لطلب الرزق .

(ذُلُلاً) : جمع ذلول أى مسخرة منقادة .

التفسير

٦٧ـ (وَأَوْحَى رَبُّك إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ)

النحل : من الحشرات النافعة للبشرية ، بما تفرزه من العسل الذى جعل الله فيه شفاء للناس وسميت بهذا الاسم ، لأن الله سبحانه نحلها هذا العسل ، كما قال الزجاج والجوهرى : أى منحها إياه وقد أخبر الله فى هذه الآية والتى تليها عن المنهج الذى تسلكه حتى تخرج لنا العسل من بطونها ليتغذى به الناس ويستشفوا من كثير من الأمراض ، وبين ـ سبحانه وتعالى ـ أن سلوكها هذا المنهج بوحى منه جل وعلا .

وللوحى فى اللغة معان مختلفة ، والمراد منه هنا الإلهام ، وهو ما يخلقه الله فى القلب ابتداء من غير سبب ظاهر .

ولا يقتصر هذا الوحى على النحل ، بل تفضل الله به على كل حيوان فقد ألهمه الله ـ تعالى ـ ما فيه منافعه فيسعى إليه ، وما فيه مضاره فيجتنبه ، وما فيه معاشه فيدبره ، حتى لتراه يختزن قوته فى الشتاء إذا كان لايستطيع الظهور فيه والتعرض لبرده ، فلهذا يملأ مخازنه بالطعام

ويعقمه بما يجعله صالحًا ولا يتعرض للفساد. ولم يقتصر هذا الإلهام على الحيوان بل تعداه إلى النبات والجماد، فإن البذور والنوى. يلهمها الله أن تتجه بجذورها إلى أسافل جوف الأرض لتستمسك بها وتتغذى منها. وتتجه ببراعمها وسيقانها وأوراقها وفروعها إلى أعلى دون أن يطرأ على منهجها هذا أى اختلاف.

وألهم الأرض أن تغذى جذور النبات. وتيسر لها سبيل التعمق داخلها ولو كانت الأرض صخرية. فكم من غابات وأشجار وأعشاب تنبت فى الأرض الجبلية. هذا إلى جانب ما يتم داخلها من التحولات الخطيرة التى تنشأ عنها المعادن والغازات والعناصر المختلفة وكل ذلك يتم بإلهام الله وتدبيره. ولقد أحسن إبراهيم الحربى فى قوله: لله عز وجل فى الموات قدرة لم يُدْر ماهى. لم يأتها بها رسول من عند الله، ولكن الله تعالى عرفها ذلك[1].

ولا غرابة فى ذلك، فقد جاء القرآن الكريم بذلك صراحة عن الأرض فى سورة الزلزلة فقد قال تعالى: « إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا. وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا. وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَالَهَا. يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا »: أى ألهمها وأعطاها من الأسباب ما نشأت عنه تلك المسببات.

ولم يحرمنا القرآن العظيم ولا السنة المطهرة من الإشارة إلى تلك العجائب التى لم يستطع الإنسان أن يكشف الكثير من أخبارها وأسرارها. فالله تعالى يقول إنه أمر الجبال والطير أن تؤوب فى التسبيح وترجعه مع داود. وذلك فى قوله فى سورة سبإ: « وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ »[2]. وفى سورة ص « إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ. وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ »[3].

والرسول يقول فى جبل أحد: (أُحُدٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ) فوصف الجبل الأصم بأنه يحب الرسول. ورجف أُحُدٌ والنبى فوقه وأبو بكر وعمر وعثمان فخاطبه النبى قائلًا: « اثْبُتْ أُحُدُ فَإِنَّمَا فَوْقَكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وشهيدان ». أخرجه البخارى وغيره.

ومن عجائب إلهام الله للحيوان ما وقع يوم وصول النبى صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، حيث تجاذب الصحابة ناقته القصواء وهو عليها، ليكون الرسول ضيفًا كريمًا على من يفوز بها

(١) نقله القرطبى عنه فى تفسير هذه الآية. (٢) من الآية: ١٠ (٣) الآيتان: ١٨، ١٩

منهم ، فقال لهم : « خلُّوا سَبِيلها فإنها مأْمُورةٌ » فتركوها وأرخى النبي زمامها دون أن يوجهها ، فجعلت تنظر يمينا وشمالا أثناء سيرها حتى برَكَتْ بفناء بنى عدى بن النجار أمام مِرْبد سهل وسُهَيْل ولدى رافع بن عمرو ، ثم ثارت الناقة والرسول عليها حتى بركت أمام باب أبى أيوب الأنصارى ، ثم ثارت وبَرَكَتْ فى مبركها الأول وأرْزَمَت (أى صَوَّتَتْ دون أن تفتح فمها) ونزل النبى صلى الله عليه وسلم عنها وقال : « هَذَا الْمَنْزِلُ إنْ شاءَ اللهُ » ، واحتمل أبو أيوب رحله وأدخله بيته ، وقال أبو أيوب المرءُ مع رحله ، فنزل النبى عنده ، وأخذ سعد ابن زرارة ناقته عنده .

وقصة (الهدهد) العجيبة مع سليمان ، وكذا قصة (النملة) فى توعيتها للنمل من أن يحْطِمهُ سليمان وجنوده ، وتعليم الله سليمان منطق الطير كل ذلك واضح فى أن لها إدراكات ونطقا وعبارات لا يعلمها إلا من علمه الله ، فلا غرابة فى أن يُعبر الله عن إلهامه للنحل فى معاشها بالوحى ، لأن لها إدراكات تعى بها هذا الإلهام ، فتبارك الله أحسن الخالقين.

المعنى الاجمالى للآية

وألهم ربُّك النحلَ ، قائلا فى إلهامه إياها : اتخذى بيوتا لك تأْوين إليها فى الجبال داخل كهوفها ومغاراتها وكُواها ، وفى الشجر داخل أجوافها وبين أغصانها وفيما يعرشه ويُهيئهُ لك بنو آدم من العرايش والخلايا ونحوها .

وعرش ، معناها هنا : هيَّأ ، قال القرطبى : وأكثر مايستعمل فيما يكون من إتقان الأغصان والخشب وترتيب ظلالها. ومنه العريش الذى صنع لرسول الله صلى الله عليه وسلم : اهـ ويقول ابن العربى فى هندسة النحل لبيوتها : ومن عجيب ماخلق الله فى (النحل) أن ألهمها لاتخاذ بيوتها مسدسة ، فبذلك اتصلت حتى صارت كالقطعة الواحدة وذلك أن الأشكال من المثلث إلى المعشر إذا جمع كل واحد منها إلى أمثاله لم يتصل وجاءت بينها فرج إلا الشكل المسدس ، فإنه إذا جمع إلى أمثاله اتصل كأنه قطعة واحدة : اهـ من القرطبى

٦٩ - (ثُمَّ[1] كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) :

أى وكلى أيتها النحلُ بعضا من كل الثمرات ، وهو رحيق الأزهار التى هى أساس

---

(١) لفظ (ثم) هنا بمعنى واو العطف وليست للترتيب والتراخى ، إذ لا ترتيب بين الأكل من الثمرات وبين اتخاذها البيوت ولا تراخى لأكلها عنه ، فإنهما قد يكونان متصاحبين ، بل ربما سبق الأكل من الثمرات بناء البيوت ، فإن البطون الجائعة تضعف قواها عن البناء .

لثمرات أو من الثمرات نفسها، ويقولون إنها قد تأكل من الأزهار المرة ، ويعود كل ذلك عسلا حلوا شهيا ، وفى ذلك يقول المعرى :

والنحل يجنى المرَّ مِنْ زَهْرِ الرُّبى فيعود شَهْدًا فى طريق رُضَابِهِ[1]

والأمر فى قوله تعالى للنحل : «ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمراتِ» ليس على حقيقته ، بل المقصود منه أنه - تعالى - يسّر لها ما تشتهيه من الثمرات لتأكل منه ، فتجد نفسها مجبولة على أن تتناول منها ما تريد كأنها مأمورة بذلك ، لتحيى وتؤدى وظيفتها فى الحياة ، من إفراز العسل لغذاء الناس وشفائهم ، ثم بيّن الله أن سبلها إلى ذلك مذللة فقال سبحانه :

(فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً) : أى فاذهبى طائرة فى طرق ربك التى توصلك إلى الحدائق والبساتين فهى مفتوحة لك فى جنبات السماء شرقًا وغربًا ، شمالا وجنوبا ، مسخرة لك ، لا يمنعك عنها مانع فأنت نافعة للزراعة ، وجالبة للأرزاق ، وكما ذللها الله لك فى الغداة وأنت ذاهبة إلى أرزاقك ، ذللها لك فى الأصيل وأنت عائدة إلى بيوتك لا تضلين سبلها ، فسبحان الله « الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » .

وقيل فى معنى الآية : فاسلكى ما أكلت من الأزهار والرحيق فى مسالكه التى يتحول فيها بقدرة الله عسلا .

ثم اتجه الكلام من مخاطبة النحل إلى الكلام مع الناس فى عجائب صنع الله على سبيل الاستئناف ، وذلك فى قوله تعالى :

(يخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ) :

يقُصُّ الله علينا فى هذه الآية أن النحل بعد أن تتناول غذاءها من كل الثمرات ، يخرج من أجوافها عسل ألوانه مختلفة تبعًا للون ما تناولته من الأزهار والثمرات ، فقد يكون أبيض ، وقد يميل لونه إلى الصفرة أو الحمرة أو نحوهما ، كما قد يتأثر برائحتها طيبة أو كريهة ، وقد يكون للجو[2] أو لِسِنِّ النحل أثر فى ألوان العسل ، كما يقوله القدامى والله تعالى أعلم ، وقد عبر عنه بشراب لأنه مما يشرب .

---

(١) الرضاب - بضم الراء مشددة - يطلق على الريق فى الفم ، والشهد - بضم الشين المشددة وفتحها - هو العسل .
(٢) فان الجو الحار يجعل لون العسل يميل إلى الصفرة والكدمة، وقوامه ، إلى الكثافة .

والجمهور على أن العسل يخرج من أفواه النحل ، ومن ذلك قول الحسن : لُبَابُ البُرِّ بلعاب النحل بخالص السمن ما عابه مسلم : ا هـ ونحن نقول : إنما قال الله سبحانه : (يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا) : لأنها هى التى تحيل الثمرات التى تأكلها النحل إلى عسل ، ثم تدفعه وتخرجه من هذه البطون عن طريق أفواهها ، وقال الآلوسى : وفى الكشف أن فى قوله تعالى : (ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) إشارة إلى أن لمعدة النحل فى ذلك تأثيراً ، وهو المختار عند المحققين من الحكماء : ا هـ يريد بذلك أن يردَّ على من يزعم أن المراد من بطونها أفواهها ، وأن الأفواه هى التى تصنع العسل دون دخل للمعدات فى تحويل الغذاء إلى عسل .

وقد بين الله تعالى أن هذا العسل فيه شفاءٌ للناس ، إما مجرداً وإما مخلوطا بغيره من المعاجين المختلفة ، كما كان قدامى الأطباء يعالجون ، وقد اعترف الطب الحديث بفوائده فى كثير من الأمراض والقروح وليس بلازم أن يكون فيه شفاءٌ لكل الأمراض أو لكل الناس فقد يشفى به مرض فى إنسان ولكنه لا يشفى به فى إنسان آخر ، وقد يشفى به مرض ، ويزيد العلة فى مرض آخر ، ولهذا لم يعمم الله تعالى فى لفظ الشفاء ، إذ لم يقل : فيه الشفاءُ للناس ، بل قال : (فِيهِ شِفَاءٌ) بتنكير شفاء للتبعيض ، ليكون المعنى : فيه بعض الشفاء للناس لا كل الشفاء دائماً [(١)] .

وقد ذكر قدامى الأطباء أنه ينقى الجروح ويُدمِّلها ويأكل اللحم الزائد ، ويشفى من دموع العين وحكتها وجربها كحلا وبخاصة مع ماء البصل ، وإن أُذيب فى الماء سكن المغص وقطع العطش ، إلى غير ذلك مما كتبته كتب الطب القديم فارجع إليها إن شئت فقد كَتَبَتْ عنه كثيراً من الفوائد والأضرار ، وهذه الآية دليل على جواز التداوى خلافا لمن كره ذلك ، بل هو مطلوب لقوله تعالى : « وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ » . وفى صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لكل داءٍ دواءٌ فإذا أُصيب دواءُ الداء برأ بإذن الله » وأخرج أبوداود والترمذى عن أُسامة بن شريك قال : قالت الأعراب ألا نتداوى يارسول الله قال : « نعم يا عباد الله تداووا ، فإن الله لم يضع داءً إلا وضع له شفاءً إلا واحداً » قالوا يارسول الله وما هو ؟ قال الهرم » لفظ الترمذى وقال : حديث حسن صحيح إلى غير ذلك من الأحاديث .

(١) و «أل» فى الناس للجنس لا للاستغراق ، فيصدق الخبر بحصول الشفاء فى بعضهم .

ثم ختم الله الآية بقوله :(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) :فإن أهل الفكر حين يرون هندستها البارعة فى بناء بيوتها ،وتحول طعامها من الثمرات ولوكان مرا إلى عسل شهى مختلف الألوان ، نافع للأبدان ، يستدلون بذلك على أن لها ربا حكيما ألهمها وأعطاها من العجب ما يحير الأفكار ، وما لا يستطيعه الإنسان ، ولا يترددون فى أن يقولوا : « فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ » .

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾)

المفردات :

(أَرْذَلِ الْعُمُرِ) :أى أخسه وأحقره . (فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ) :أى متساوون .

(وَحَفَدَةً) : جمع حفيد وهو ولد الولد كما قال الأزهرى : ويطلق على الخَتَن وهو الصهر كأبى الزوجة وأخيها وسائر أقاربها . رواه زرّ عن عبد الله . وقال ابن عرفة : الحفدة عند العرب الأعوانُ . فكل من عمل عملا أطاع فيه وسارع فهو حافد – قال – ومنه قولهم : « إليك نسعى ونحفد » وقال الخليل بن أحمد : الحفدة عند العرب الخدم .

(الطَّيِّبَاتِ) : النِّعم التى طابت وطاب أكلها وطعمها ، أو ما أحله الله من الأرزاق .

التفسير

٧٠ - (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا) :

يحكى الله فى هذه الآية بعض عجائب قدرته وسلطانه فى الإنسان ، بعد أن بيَّن عجائب إبداعه وحكمته فى إنزال الماء من السماء ، وإحيائه الأرض بعد موتها ، وعظيم العبرة فى الأنعام حيث أخرج لنا من بين فرثها ودمها لبنا خالصا سائغا للشاربين ، وبليغ حكمته ونعمته فى (النحل) حيث ألهمها تدبير رزقها ومساكنها العجيبة وأخرج لنا من بطونها شرابا مختلف الألوان كثير المنافع للأبدان ، والحكمة فى بيان هذه الآيات توجيه العقول إلى الإيمان بمبدعها ، وأنه قادر على إحياء من فى القبور .

والمعنى : والله - تعالى - خلقكم فأحسن خلقكم ، ورباكم فأحسن تربيتكم ، ولم يجعل حياتكم فى دنياكم إلى بقاء بل أعدها إلى فناء ، ففى أول نشأتكم على وجه الأرض تنمون ثم تَشِبون ، ثم يتوقف نموكم عندما يكتمل شبابكم ، ولكنه يحفظ عليكم فتوَّتكم وقوتكم إلى أن تصلوا إلى سن الكهولة[1] فتضعف قُوَاكُم آنا بعد آن ، ويتدرج ضعفكم حينا بعد حين ، حتى إذا أطلت الشيخوخةُ بأعبائها ، حل على أجسادكم الانحطاط الكبير ، وعلى عقولكم الوهن الخطير ، فتصبحون فى أرذل العمر ، وأخسّ مراتب الحياة ، فلا تعلمون من بعد علم شيئا ، إذ تنسون ما كنتم تذكرون ولا تحفظون ما تتعلمون ، وفى أثناء هذه الحياة منكم من يتوفاه الله فى طفولته ، ومنكم من يميته فى شبابه ، وبعضكم يأخذه فى كهولة ، وآخر يرحلُ إليه فى شيخوخته ، ولا يرتبط ذلك كله إلا بإرادة العليم الخبير ، فلا يستطيع حكيم أن يتحكم فى أجله « وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ »[2] .

---

(١) الكهل : من أصابه الشيب ، وعرفه بعض اللغويين بأنه من جاوز الثلاثين إلى الخمسين والهرم بوزن الكرم أقصى الكبر ، ومن يوصف به فهو هرم ، وفعله هرم كفرح ، والشيخوخة تبدأ من الحادية والخمسين ، وتنتهى آخر العمر ، والهرم داخل فيها ، راجع تلك المواد فى القاموس وغيره . (٢) بعض الآية الأخيرة من سورة لقمان .

وليس لمراتب العمر سن معينة ، فقد تأتى الكهولة أو الشيخوخة فى سن الشباب ، فكم من شبابٍ شابوا وانحطت قواهم وضعفت ذاكراتهم ،ومفتاح هذا كله وعلمه عند الله رب العالمين ، ولهذا ختم الله الآية بقوله جلَّ ثناؤه .

(إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ) :أى إنه تعالى واسع العلم بمقادير أعماركم ، عظيم القدرة على إحيائكم وإماتتكم ، وهو صاحب المشيئة المطلقة فإن شاء أمات الشاب النشيط وأبقى الشيخ الفانى ، وإن شاء أجرى الأمور على ضوابط مطردة ، فالحكم لله العلى الكبير .

واعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يتعوذ من عدة أمور منها الهرم حيث يحل أرذل العمر ، فى صحيح البخارى عن أنس بن مالك قال :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ فيقول : « اللهم إنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْكَسَلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الجُبْنِ ، وَأَعوذُ بِكَ مِنَ الهرمِ ، وأَعوذُ بِكَ مِنَ البُخْلِ » .

٧١ - (وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ) :

بيَّن الله تعالى فى الآية السابقة دلائله ونعمه فى خلقنا وتفاوتنا فى آجالنا وعلومنا ، وجاءت هذه الآية لبيان فضله فى رزقنا ، وأننا لا نرضى أن نسوى بيننا وبين مماليكنا فيه ، فكيف يرضى المشركون أن يسووا بينه - سبحانه - وبين خلقه فى الألوهية ، فيشركوهم معه فيها ، ويعبدوهم أكثر مما يعبدونه .

والمعنى : والله جعلكم متفاوتين فى الرزق والنعمة ، إذ جعل بعضكم غنيا والآخر فقيراً ، وبعضكم سيداً والآخر مملوكا ، وبعضكم مخدوما والآخر خادما ، وقد جرت عادتكم أن لا يُعْطِى من فضَّلهُ الله فى النعمة مملوكه أو خادمه ما يجعله مساويا له فيها ، بل يعطيه شيئا يسيراً ، فإذا كانوا لا يحبون أن يجعلوا مماليكهم أو خدمهم مثلهم فى الرزق ، مع أنهم مساوون لهم فى البشرية والمخلوقية لله والاستحقاق فى رزقه ، فكيف يرضون أن يجعلوا شريكا مع الله مَلَكًا أو بشراً أو كوكبا أو صنما ، ويسووه به - تعالى - فى الألوهية والمعبودية ، فى حين أنها مخلوقة له وليس لها من أمر نفسها أو غيرها شىءٌ ، فإن الأمر كله لله - تعالى - وختم الله الآية بتوبيخهم على إنكارهم لنعمه بهذا الإشراك فقال :

(أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ) : أيشركون بالله – تعالى – فيجحدون بهذا الإشراك ما أعطاهم من نعمة حيث اقتضت عبادتهم لآلهتهم أن هذه النعم منهم ، أو أنهم شركاء فيها ، مع أنها من فضل الله دون سواه ، ثم بين فضله عليهم فى الأزواج والأولاد والأتباع ورزق الطيبات . وعدم قيامهم بموجب إنعامه فقال :

٧٢ – (وَاللهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا) :

والله تعالى جعل لكم يا بنى آدم زوجات من جنسكم لتأنسوا بهن ، ويكون أولادكم أمثالكم ، فتتناسلوا وتنجبوا نوعا واحداً بلا تباين ولا اختلاف . وقيل هو خلق حواء من ضلع آدم ، والأول أظهر .

(وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ) :

الحفدة : جمع حافد ، وهو من يسرع فى الخدمة والطاعة ، وقد اختلف العلماء فى بيان المراد منه شيئا ، وقد مرَّ فى المفردات بيان بعض ما قالوه فى ذلك وأظهره أنهم أولاد الأولاد ، قال القرطبى : ما قاله الأزهرى من أن الحفدة أولاد الأولاد هو ظاهرُ القرآن بل نصّه . ألا ترى أنه قال : « وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً » ، فجعل الحفدة والبنين منهن » ا هـ. وهو الذى استظهره ابن العربى .

والطيبات : لذائذ النعم ، أو حلالها .

والمعنى : والله جعل لكم من جنسكم زوجات لتستريح نفوسكم إلى معاشرتهن ، وتسكن قلوبكم عند لقائهن ، وتزول همومكم بأحاديثهن ، ولم يجعلهنَّ من جنس آخر تنفر منه الطباع ، ويختلف بسببه الجنس البشرى ، ورزقكم لذائذ النعم وما أحله منها ، وكان عليكم أن تشكروه ولا تكفروه ، وتوحدوه ولا تعبدوا معه غيره ، ولكنكم أخللتم بمقتضى نعمته ، ولهذا نعى على الكافرين ذلك فقال :

(أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ) :

أفبالباطل من ألوهية شركائهم وحرمة البحائر والسوائب ونحوها يصدقون ، وبنعمة الله التى لا يحصى لها يكفرون ، حيث يضيفونها لآلهتهم ، وينسون الله الذى أنعم بها عليهم .

(وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾)

المفردات :

(وَلَا يَسْتَطِيعُونَ) : ولا يقدرون على أى شيء .

(فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ) : أى فلا تجعلوا لله الأشباه والنظائر ، باتخاذكم له شركاء .

التفسير

٧٣ـ (وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا ...) الآية .

أى ويعبد المشركون سوى الله مالا يملك أن يرزقهم شيئا من السماء كالضوء والمطر ومن الأرض كالنبات والثمر . ولا يستطيع أولئك الشركاء أىَّ قدْرٍ من الاستطاعة فى النفع فضلا عن الضر .

٧٤ـ (فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) :

أى فلا تجعلوا لله تعالى الأشباه والنظائر بعبادتكم سواه معه ، ولا ينفعكم ما تزعمون من أنها تقربكم إلى الله زلفى ، فلا يقربكم إليه سوى توحيده وعبادته وتنزيهه عن الشريك والنظير . إن الله تعالى يعلم الحق فيأمركم به ، ويعلم الباطل فينهاكم عنه ، وأنتم تجهلون ولا تعلمون ، فاجتنبوا نهيه وأطيعوا أمره .

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾

المفردات :

(ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً) : أورد حجة على سبيل التشبيه والتمثيل .

(هَلْ يَسْتَوُونَ) : المراد أنهم لا يستوون . (أَبْكَمُ) : لايقدر على الكلام ولايسمع.

(كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ) : عالة وعبء ثقيل على سيده الذى يتولى أمره.

(يُوَجِّهْهُ) : يبعثه فى مهم من الأمر . (يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ) : يدعو إلى الخير والبر .

(السَّاعةِ) : المراد بها يوم القيامة .

(كَلَمْحِ الْبَصَرِ) :رجع الطرف من أعلى إلى أسفل أو هو النظر بسرعة ، يقال لمحه لمحا إذا نظره بسرعة .

التفسير

٧٥ - (ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْدًا مَمْلُوكًا لَايَقْدِرُ عَلَى شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا) :

بعد أن نهى الله سبحانه عن الإشراك به، وقرع المشركين ووبخهم على اتخاذ الأنداد له تعالى ضرب مثلين يوضح بهما عدم التساوى بينه وبين أحد أو شىء من خلقه ليدرك العاقل أنه إذا انتفت المماثلة فيهما وجب التوحيد وامتنع الشرك بالبداهة .

والمعنى : صور الله حالكم فى إشراككم أوثانكم العاجزة ، بالله القدير الكريم الكثير الخير والبر ، صور لكم ذلك ومثله بحال من يُسوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف شـديد الحاجة إلى غيره وبين حرٍّ رزقه الله رزقـا واسعا فهو ينفق منه على غيره ويتفضل به على سواه فى السر والعلانية حسب مقتضيات الإنفاق ، ويتصرف فيه بحكمة فكيف يستوى هذا الحر الكامل التصرف مع هذا العبد الشديد العجز عن التَّصرُّف ، فضلا عن أنه لا يملك أمر نفسه ، ولهذا سأل الله العقلاء بأُسلوب الاستفهام الإنكارى فقال : (هَلْ يَسْتَوُونَ) : أى هل يعقل أن هذا العبد الضعيف العاجز عن التصرف يتساوى مع الحر المتصرف على أحسن الوجوه وإذا كانا لايستويان بداهة ، فكيف يسوى هؤلاء المشركون أوثانهم العاجزة بالله الخالق الرازق المدبر المحسن فى السر والعلن ، ثم ختم سبحانه وتعالى الآية بقوله : (الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) :لبيان أن وضوح هذه الحجة يقتضى الثناء الكامل والحمد التام لله وحده لأنه المستحق له دون سواه ، ولكن أكثر هؤلاء الكفار لا يعلمون أن هذا هو الحق وذلك لجهالتهم وغفلتهم ، ولمَّا كان فريق آخر منهم يعلم ذلك ويعرفه و لكنه لايعمل بموجبه عنادا واستكبارا فلهذا قيل : (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُون) ولم يقل :بل هم لايعلمون .

وقيل : المراد أنهم جميعا لايعلمون فعبَّر بأكثرهم عن جميعهم .

٧٦ـ (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) :

وهذا مثل آخر مؤكد للمثل الأول فى الدلالة على مادل عليه بأوضح وجه وأظهر بيان . أى وذكر الله مثلا آخر يوضح فساد متساواتهم آلهتهم بالله ، وهو يتجلى فى رجلين أحدهما : أخرس أصم لايَفْهِم ولايُفْهَم وهو مع ذلك لايقدر على شىء لنفسه أو لغيره من جلب نفع أو دفع ضر لجهله وسوء تقديره ، وهو لذلك عبء على غيره حيثما يرسله مولاه فى أمر فإنه لاينال

نجحا ولايصيب خيرا ، أما ثانيهما : فرجل عاقل له رأى ، سليم الحواس ينفع نفسه وغيره يأمر الناس بالإنصاف والعدل ، وهو على منهج قويم وسيرة صالحة هل يستويان ؟ وإذا كانا لايستويان ولايتشابهان فكيف يسوى المشركون الصنم الأصم الأبكم العاجز عن كل شىء بالله القادر الذى يفيض على عباده الكثير من آثار رحمته ونعمته ، ويأمرهم بالعدل فى توحيده وطاعته وفى أمرهم كله ، وهو فيما يدعوهم إليه على طريق مستقيم موصل إلى خيرى الدنيا والآخرة .

٧٧ ـ (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ) :

بعدأن بين الله تعالى عن طريق ضرب المثل استحالة أن يستحق العبادة غير الواحد الأحد جاء بهذه الآية لتدل على كمال علمه وعظيم قدرته وبعيد حكمته .

والمعنى : ولله وحده ماغاب فى السموات والأرض وخفى فيهما على خلقه ، لهُ ذلك خلقا وملكا وعلما وتصرفا ، ولاسبيل لغيره فى شىء من ذلك .

(وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ) : أى وما الشأن فى سرعة مجىء الساعة التى يقوم فيها الناس لرب العالمين إلا كرجع الطرف بإطباق الجفن ، فإنه تعالى لايعجزه شىءٌ فى الأرض ولا فى السماء . ونحوه قوله : « وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ » أى أن قيام الساعة وبعث الخلق للحساب والجزاء فى السرعة كطرف العين ، وقوله : (أَوْ هُوَ أَقْرَبُ) : ليس للشك بل لتخيير الْمُمَثِّلِ فى التمثيل به أو بالذى قبله ، وكلاهما كناية عن بالغ السرعة وقيل : إن المعنى بل هو أقرب عند الله فى الحقيقة . وإنما خص الساعة بالذكر من بين علوم الغيب التى لا تحصى لكثرة المماراة والمجادلة فيها وتكذيب الأمم رسلها فى إخبارهم بها . ولذا ختم ـ سبحانه ـ الكلام عنها بما يثبت قدرته وأنه تعالى ـ لايمتنع عليه شىءٌ أراده فقال :

(إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) : فلا يعجزه أمر الساعة ، وبعث الأجساد بعد موتها كما لايعجزه شىءٌ سواه .

(وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾)

المفردات :

(لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) : لكى تشكروا . (مُسَخَّرَاتٍ) : مُيَسَّرَات مُهيآت للطيران .

(سَكَنًا) : موضعا تسْكُنُون فِيهِ أو تسكنون وتطمئنون إليه .

(الأَنْعَامِ) : هى الإبل والبقر والغنم والمعز .

(تَسْتَخِفُّونَهَا) : تجدونها خفيفة سهلة المأخذ . (ظَعْنِكُمْ) : سفركم وارتحالكم .

(أَثَاثًا) : الأثاث متاع البيت كالبساط والفراش والغطاء والكساء .

(مَتَاعًا) : مايتمتع وينتفع به . (إِلَى حِينٍ) : إلى وقت انقضاء حاجتكم وتمتعكم به .

(مِمَّا خَلَقَ ظِلَالاً) : ما يستظل ويتقى به حر الشمس وضوءها من سقف وشجر وغمام وغير ذلك .

(أَكْنَانًا) : جمع كِنٍّ وهو ما يستتر به ويسكن فيه كالكهوف .

(سَرَابِيلَ) : هى الثياب مطلقا ، جمع سربال أو سربالة .

(تَقِيكُمُ الْحَرَّ): تحفظكم منه ، كما تحفظكم من البرد أيضا ، ففيه اكتفاء بأحد الضدين عن الآخر .

(وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ): هى لباس الحرب كدروع الحديد وأغطية الرأس منه .

التفسير

٧٨ـ (وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَاتَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ) :

بعد أن ضرب الله المثل للناس على فساد الشرك ، واتخاذ الأوثان شركاء لله فى العبادة ، شرع فى ذكر عدد من دلائل قدرته وبديع حكمته وجليل نعمته على عباده التى يستحق بموجبها أن يُعْبد دون سواه ، وأن يشكر ولا يكفر به ، ومعنى هذه الآية أن الله تعالى يخرجكم من بطون أمهاتكم وليست لديكم القدرة على تحصيل العلم ، فقد كانت ملكاتكم فى طفولتكم عاجزة عن أداء وظيفتها فمنَّ الله عليكم بنمو أجسادكم وحواسكم وملكاتكم ، لكى تُحصِّلوا بها العلم والمعرفة ، فبالسمع تسمعون ، وتُدركون المسموعات ، وبالبصر تدركون المرئيّات ، وبالعقول والأفئدة تميِّزون بين الخير والشر والنافع والضار ، وتحصّلون العلم ، وقد فعلنا ذلك لكم وأنعمنا به عليكم .

(لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) : أى لكى تشكروا الله وتعرفوا له فضله فلا تعدلوا به أحداً سواه .

٧٩ـ (أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِى جَوِّ السَّمَاءِ مَايُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ) :

هذه آية أخرى حثنا الله فيها على النظر فى عجائب صنعه .

والمعنى : ألم ينظر المشركون إلى الطير مسخرات للطيران بما خلق الله لها من الأجنحة والأسباب المساعدة عليه ، فإن من تأمل الطيور السابحة فى الجو ، لا شىء يجذبها إلى أعلى ، ولا سبب يحفظها من السقوط فى أسفل ، أدرك أن الله هو الذى سخرها للطيران وسخر لها الجو وأمسكها فيه ، ولم يمسكها سواه ، وذلك بما أمدها به من أسباب تحفظها وتمسكها أن تسقط إلى الأرض ، وتجعلها تجوب الفضاء وتعلو وتهبط وتسرع وتبطىء ، وتميل يمينًا وتنحرف شمالًا ، إنه الله الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى .

(إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) : إن فى ذلك الذى ذكر من تسخير الطير فى الجو وإمساكها من السقوط لدلالات على قدرة الله ووحدانيته ، يسوقها لقوم لهم علم وعقل وإيمان فما بال المشركين يعرضون عن هذه الآيات الجليلة المستوجبة لطرح الشركاء ، والتوحيد الخالص لرب العالمين .

وخص المؤمنين لأنهم هم المنتفعون بالنظر والتدبر ، وإن كانت الحجة قائمة على كل عاقل .

٨٠ـ (وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا) :

وتلك آية أخرى ساقها الله ، مبيِّنًا بعض نعمه المستوجبة لشكره والإيمان به .

والمعنى : أنه هداكم إلى اتخاذ البيوت لكى تستريحوا وتسكنوا فيها بين أهليكم وأولادكم ولم يترككم تأوون إلى الغابات أو تعيشون فى الكهوف وقت إقامتكم الدائمة ، أما فى الترحل والانتقال فقد ألهمكم ما يعينكم على تلك الحياة وهو ما ذكره تعالى بقوله :

(وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا) : أى أرشدكم إلى صنع الخيام وضرب القباب فى أسفاركم ، وهداكم إلى اتخاذها من جلود الأنعام حيث :

(تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ) : تجدونها خفيفة الحمل قليلة الكُلْفة ، فيسهل عليكم نقضها وحملها ونقلها إذا ارتحلتم ، فإذا ما أقمتم سهل عليكم ضربها للإقامة ، فيها ما أقمتم .

(وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ) : أى وهداكم كذلك إلى أن تتخذوا من أصواف الغنم وأوبار الإبل وأشعار المعز أثاث المنازل من البسط والفرش والكساء والغطاء والخيام، وماقد تحتاجون إليه فى إقامتكم وأسفاركم تتنعمون به أنتم ، أو تتجرون به فتتسع أرزاقكم وتنمو بذلك أموالكم وتزداد ثرواتكم وتتمتعون به على أى وجه مما ذكر إلى حين انقضاء آجالكم وانتهاء أعماركم أو حاجاتكم .

٨١ـ (وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا . .) الآية .

أى أنه تعالى جعل للضاربين فى الأرض مما خلق من الأشجار والجبال والتلال ونحوها ظلالا يستظلون بها من الحر ، كما جعل لهم من الجبال ما يسكنون فيه أو يأوون إليه عند الحاجة ، من المغارات والكهوف .

(وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ) : ومن نعمه سبحانه أن ألهمكم اتخاذ ملابس للسلم تقيكم الحر مثل الجلابيب والأردية والقمص والقلانس ونحوها مما يستر أجسادكم ويقيكم حر الشمس وبرد الشتاء.وقد استغنى بذكر الوقاية من الحر عن ذكر الوقاية من البرد لأن العرب تستغنى فى لغتها كثيرًا بذكر أحد المتقابلين عن الآخر اكتفاء بأحدهما ، لأنه يشعر بالمحذوف ويدل عليه ، وكما أرشدكم إلى صنع لباس السلم ، ألهمكم أن تصنعوا من الحديد مايدفع عنكم الضربات ويرد الطعنات فى بأس الحرب وشدتها .

(كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ) :أى هكذا تتوالى نعم الله عليكم فى حياتكم حتى تتكامل وتتم ، لعلكم أنتم وكل من يصلح للخطاب والتذكير تتأملون وتتدبرون فتدركوا نعم الله عليكم ، وتعرفوا لِواهِبِها قدْرَهُ فتنقادوا له ، ولا تتخذوا معه الأنداد ولا تعبدوا ربًّا سواه ، فأنت ترى من سرد هذه النعم أنه تعالى شمل بنعمته أهل الحضر وأهل المدر ، فالكل بنعمته ينعمون ، وبفضله يتمتعون .

(فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ شُرَكَآءَهُمْ قَالُواْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُواْ مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْاْ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾)

المفردات :

(تَوَلَّوْا) : أعرضوا وأبوا . (الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) : التبليغ البيّنُ الواضح .

(يُنكِرُونَهَا) : يجحدونها ولا يعرفون فضل المنعم بها . (أُمَّةٍ) : جماعة من الناس .

(شَهِيدًا) : أى نبيا يشهد بكفرهم أو بإيمانهم .

(لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) : أى لا يسمح لهم بالاعتذار إذ لا عذر لهم .

(ولَاهُمْ يُسْتَعْتَبُونَ) : ولا يطلب منهم العُتْبى أى إرضاء الله يوم القيامة ؛ والعُتْبى تطلق على الرضا ـ انظر القاموس .

(يُنْظَرُونَ) : يمهلون ويؤَجل عذابهم . (تَدْعُوا) نعْبُد .

(يَفْتَرُونَ) : يختلقون ويكذبون .

(وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ) : أى وأظهروا الاستسلام إلى الله يوم القيامة .

التفسير

٨٢ـ (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) :

أى فإن أعرض المشركون يا محمد بعد بيان الآيات الكونية والتنزيلية ولم يؤمنوا بما جئت به من الحق ، فلا تحزن عليهم ولا تأسف على ما يصنعون فلست مسئولًا عن كفرهم .

(فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) : أى فما عليك إلا أن تبلغهم ما أرسلت به إليهم تبيينًا يوضح معالم الدين ويبين الصراط المستقيم وقد فعلت على أتم وجه وأكمله ، وهم مسئولون ومحاسبون على عدم استجابتهم ، أمَّا خلق الإيمان فى قلوبهم فلست بقادر عليه . قال تعالى : « فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ »[1] .

٨٣ـ (يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ) :

أى يعرف المشركون أن هذه النعم المذكورة وغيرها من عند الله فإذا سألتهم من الذى خلقها ؟ قالوا : خلقها الله ، وكان مقتضى هذه المعرفة أن لا يشركوا بالمنعم بها ، وأن لا يعبدوا سواه ، ولكنهم ينكرون نسبتها إلى الله بأفعالهم ، وذلك بعبادة غير واهبها ، وشكر غير مُسْدِيها من صنم أو غيره وعطف بثم التى تفيد التراخى والبعد ، للدلالة على أن إنكارهم أمرٌ ينبغى أن يكون مستبعدًا ، وذلك بعد أن عرفوا نعم الله وسعدوا بها ؛ إذ أن من الواجب على من عرف النعمة وعاش فيها أن يعترف بها لمنعمها لا أن يجحدها وينكرها .

(وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ) : أى وأكثر أهل مكة هم الكافرون بها ، حيث عبدوا غير الله وأعرضوا عن الحق ، أما القليل منهم فقد آمن بالمنعم بها واستجاب لدعوة نبيهم إلى توحيده .

ويجوز أن يراد من نعمة الله نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنهم كانوا يعرفونها بعقولهم ثم ينكرونها بألسنتهم عنادًا ، وأكثرهم الجاحدون به ، أمَّا القليلون منهم فقد هداهم الله ، فآمنوا به صلى الله عليه وسلم ، وثبتوا على إيمانهم مع ما قاسوه من التعذيب والإيذاء .

٨٤ـ (وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا) :

لما بين سبحانه حال الكافرين وأنهم عرفوا نعمة الله ثم أنكروها ؛ جاء بهذه الآية وعيدًا للمنكرين .

---

(١) سورة الرعد ، من الآية : ٤٠

والمعنى : واذكر لهم أيها النبي يوم القيامة ، ونبئهم بما يقع فيه من الأهوال حيث يبعث من كل أمة شهيدًا من المرسلين ، يشهد لمن آمن بالإيمان وعلى من كفر بالكفر ، حسبما علمه عن أمته فى حياته .

(ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا) :أى لا يؤذن لهم فى الاعتذار إذ لا عذر لهم ولا حجة لديهم يدافعون بها عن أنفسهم .

(وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ)[1] :أى ولا يطلب منهم أحد فى هذا اليوم العتبى—أى أن يرضوا ربهم بتوبة أو عمل صالح— فقد فات أوان ذلك حيث كانوا فى دنيا التكليف ، وقد أعطوا الفرصة فيها فلم يفعلوا ، فلا سبيل لهم بعدها إلى ذلك ، فإن الآخرة دار جزاء . « مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ »[2] .

٨٥ – (وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ) :

وتلك صورة أخرى لما يكون عليه الكافرون من أهل النار، أى وإذا رأى هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بالكفر – إذا رأوا العذاب على كفرهم ومعاصيهم وعاينوه وشاهدوه ، (فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ) : إذ لا مجال للتخفيف بتوبة أو اعتذار ، « لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ »[3] .

٨٦ – (وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ ...) الآية .

وهذه صورة من الصور التى تكون بين الكافرين وبين من أشركوهم مع الله فى العبادة ، أو عبدوهم من دون الله ، فإذا رأوهم نادوا ربهم أذلاء صاغرين .

(هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ) : أضلونا وحملونا على عبادتهم . كأنما يقولون : هم الذين يستحقون العذاب دوننا . وكل شىء يومئذ ينطق بإذن الله فلهذا تكذبهم معبوداتهم من كل نوع كما حكى الله بقوله :

---

(١) أصل الاستعتاب طلب إزالة العتب والغضب ويكنى به عن سلب الرضا وبهذا فسر قوله تعالى : « ولا هم يستعتبون » بمعنى ولا هم يطلب منهم أن يرضوا ربهم .

(٢) سورة فصلت ، الآية : ٤٦١ (٣) سورة التحريم ، الآية : ٧

(فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ) : أى إنكم كذبتم فيما زعمتم أننا شركاء لله ، كما كذبتم فى دعائكم أننا أضللناكم ورضينا بكفركم، أو فيما تقولتم فى دنياكم من استحقاقنا للعبادة ، وما أضللناكم ولكنكم أضللتم أنفسكم وعطلتم عقولكم ، وما كان لنا عليكم من سلطان.

٨٧ـ (وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) :

وهذه خاتمة أحوال الكافرين يوم الدين : إنها خزيهم واستسلامهم.

والمعنى أن المشركين استسلموا صاغرين بعد أن قامت عليهم الحجة وخاب أملهم فى آلهتهم وضل سعيهم ، وحقت عليهم الكلمة وباءوا بغضب من الله .

(وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ) : وغاب عنهم كل ما افتروه من شرك آلهتهم لله ، وشفاعتها لهم عند ربهم ، غاب عنهم كل هذا ولقوا ربهم بفضيحة كفرهم وخزى معاصيهم .

(ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾)

المفردات :

(صَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ) : منعوا الناس عن الإيمان بدين الله .

(شَهِيدًا) : شهيد كل أمة نبيها ، فهو شاهدها .

(هَٰؤُلَاءِ) : المشار إليهم الأمم أو الأنبياء ، أو الكفار من أمة سيدنا محمد .

(الْكِتَابَ) : القرآن . (تِبْيَانًا لِكُلِّ شَىْءٍ) : توضيحًا لأحكام كل شىء .

التفسير

٨٨ـ (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ . . .) الآية .

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى استسلام الكافرين واعترافهم بكفرهم بين يدى أحكم الحاكمين أوضح جزاءهم فى تلك الآية الشريفة .

والمعنى : أن الذين كفروا بالله فلم يعترفوا بوحدانيته ، وصرفوا الناس عن دينه الذى هو سبيله الأقوم ،

(زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ) : ضاعفنا عذابهم ضعفين ، عذابًا بكفرهم وغيهم وضلالهم ، وعذابًا بصدهم الناس عن الإيمان وحملهم إياهم على الكفر والفسوق والعصيان فاستحقوا أن يزادوا عذابًا .

(بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ) : بسبب استمرارهم على الإفساد وإصرارهم على الضلال ، وفى الآية دليل على تفاوت العذاب فى دركاته كما يتفاوت النعيم فى درجاته .

٨٩ـ (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ) :

واذكر أيها الرسول للناس يوم القيامة حيث نبعث فى كل أمةٍ شَهيدًا عليهم من أنفسهم ،أى من بينهم وجنسهم وبلغتهم قطعًا لمعذرتهم .

وشهيد كل أمة نبيها ، يشهد لها أو عليها بما كان منها من الاستجابة له . أو الإعراض عنه والصدّ عن سبيله كما تقدم بيانه .

(وجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ) : وأحضرناك يامحمد يومئذ شهيدًا على أمتك هؤلاء ، تشهد عليهم كما يشهد كل نبى على أمته ، ويجوز أن يكون المراد من (هَؤُلَاءِ) : الأنبياءُ ، فهم يشهدون على أممهم ، وأنت يا محمد تشهد لهم بأنهم بلغوا ما أمروا بتبيلغه كما أخبرك به العليم الخبير فى كتابه العزيز . أو جئنا بك يا محمد شهيدًا على الأمم بما لاقوا به رسلهم من إيمان وتصديق أو إنكار وتكذيب على ما أعلمك ربك .

وقد ورد فى تفسير تلك الآية عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال: إنه قرأ سُورة النساء على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ قوله : « وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا » فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : حسْبُنا .

(وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ) : أى وآتيناك القرآن مبينًا لأحكام كل شيء من شئون معاش الناس ومعادهم ، والبيان الذى جاء به القرآن للأحكام إما بإيراد نص فيها ، أو بالإحالة على السنة كقوله تعالى : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا »[1] . أو بالإحالة على الإجماع حيث أوجب الأخذ به وتوعد على مخالفته فى قوله تعالى : « وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَاتَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا »[2] . أو بالإحالة على القياس وذلك فى قوله تعالى : « فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الْأَبْصار »[3] فالاعتبار التَّبَصُّرُ والاستدلال اللذان يحصل بهما القياس فهذه أربعة طرق لا يخرج عنها شيءٌ من أحكام الشريعة الإسلامية ، وكلها مذكورة فى القرآن ، فكان بحق تبيانًا لكل شيء .

(وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) : أى وكان منشأ الهداية والرشد ، كما أنه رحمة للمسلمين وبشرى لهم بحسن المصير وطيب المنقلب إلى ربهم ، لأنهم أسلموا وجوههم إلى الله ، وأحسنوا أقوالهم وأعمالهم ونياتهم لربهم . « وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى »[4] .

(* إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾)

المفردات :

(يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ) : يأمر بالإنصاف وعدم الظلم . (وَالْإِحْسَانِ) : هو إتقان العمل وإكماله .

(ذِى الْقُرْبَى) : المراد به صاحب القرابة مطلقًا .

(وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ) : الفحشاء ماعظم قبحه قولًا أو فعلًا ، ويكثر إطلاقه على الزنى .

---

(١) سورة الحشر ، من الآية : ٧
(٢) سورة النساء ، الآية : ١١٥
(٣) سورة الحشر ، من الآية : ٢
(٤) سورة لقمان من ، الآية : ٢٢

(وَالْمُنكَرِ) : كل ما أنكره الشرع من الذنوب والمعاصى .

(وَالْبَغْيِ) : وهو التطاول على الناس ظلمًا وعدوانًا .

التفسير

٩٠ـ (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ . . .) الآية .

هذه الآية كما يقول ابن مسعود رضى الله عنه : « أجمع آية فى القرآن للخير والشر ولو لم يكن فيه غيرها لكفت فى كونه تبيانًا لكل شىء وهدى » . أخرجه البخارى فى الأدب والحاكم وصححه ابن جرير واللفظ له .

وقد قرأها الرسول صلى الله عليه وسلم على الوليد بن المغيرة . فقال له : يا ابن أخى أعد على فأعادها عليه . فقال له الوليد والله إن له لحلاوة . وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يعلى ، وما هو بقول بشر ، ولما سمعها أكثم بن صيفى من وفد قومه إلى الرسول قال : إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق ، وينهى عن مذامها . فكونوا فى هذا الأمر رءوسًا ولا تكونوا فيه أذنابًا ،ذلك لأنها جمعت إجمالًا بين ما يجب عمله من الفضائل وما يتعين تركه من الرذائل ، والعدل الذى يأمر به سبحانه خُلُقٌ جامع لكل الفضائل من القول والعمل . يغرس فى الإنسان حب الاستقامة والمساواة ، والرغبة فى طاعة الله ، وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، وإنصاف الناس من نفسه ، وإنصاف بعضهم من بعض وهذا الخلق يجعله إذا ما تصرّف فى أمر من الأمور أو تخلّق بخلق يتوسّط فيه بين الإفراط والتفريط ، وقال سفيان بن عيينة العدل استواءُ السريرة والعلانية من كل عامل لله عملا وكما يأمر سبحانه بالعدل ويدعو إليه . فإنه يأمر بالإحسان ، وهو إحسان العمل وإتقان العبادة أى الإتيان بها على الوجه المطلوب الذى يليق بها من حيث الإخلاص لله ، وكمال العبودية له ، ويشير إلى ذلك ما رواه البخارى من قوله صلى الله عليه وسلم : « الْإِحْسَانُ أَن تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ » هذا بحسب الكيفية ، وأمّا بحسب الكمية فبكثرة التطوع بالنوافل الجابرة لما قد يقع فى الواجبات من شائبة التهاون والنقص

أو بالاستزادة من كل ما يحقق للطاعة مراتب الكمال ، ويجوز أن يراد به الإحسان إلى الناس والتفضل عليهم ، وأسمى درجاته على هذا المعنى ، الإحسان إلى المسيء مع التمكن منه والقدرة عليه ، وقد أمر بذلك نبينا صلى الله عليه وسلم ، ومن الحكم المنسوبة إلى عيسى عليه السلام قوله : « إِنَّمَا الْإِحْسَانُ أَنْ تُحْسِنَ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ . لَيْسَ الْإِحْسَانُ أَنْ تُحْسِنَ إِلَى مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْكَ » أخرجه ابن أبي حاتم عن الشعبي .

ثم يأمر سبحانه بصلة الأقارب حفاظًا على روابط الدم والنسب فيقول : (وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ) : أي أنه يأمر بصلة ذوى الأرحام على أى درجة كانت قرابتهم ، وذلك بإعطائهم مايحتاجون إليه ، لافرق بين الأقربين منهم والأبعدين ، ويشير إلى ذلك ماجاء في النص الكريم من طلب إعطاء ذى القرابة مطلقًا ، ولو طلبها للأقرباء أو للأقارب أو للأقربين لم يفد التعميم ، لأن هذه الصيغ تقيد الإحسان لأكثرهم قرابة ، فلذا جيء بهذا النص الكريم ليعم ذوى القرابة مطلقًا ، والتصريح بإيتاء ذى القربى مع أنه داخل فى الإحسان الذى يأمر به الله سبحانه ، للاهتمام بشأن صلة القرابة وإعطائها حق قدرها ، وبعد أن ذكر سبحانه ثلاثة من المأمورات . أتبعها بذكر ثلاثة من المنهيات فقال تعالى :

(وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ) : أى ينهاكم عن الفحشاء قولًا وعملًا ، والفحشاء : كل ما عظم قبحه من الذنوب ويكثر إطلاقها على الزنى ، وكما ينهاكم عن الفحشاء ينهاكم عن جميع ما أنكره الشرع من المعاصى والآثام ، وينهاكم أيضًا عن البغى على الناس ظلمًا وعدوانًا بانتهاك حرماتهم ، واغتصاب حقوقهم .

(يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) : جملة مستأنفة لبيان الحكمة فى تشريعات هذه الآية الكريمة التى تعتبر دستورًا لمكارم الأخلاق .

والمعنى : أنه تعالى ينبهكم بما جاء فى هذه الآية الكريمة ، لكى تتعظوا فتسلكوا سبيلها وتعملوا بما جاء بها .

(وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾)

المفردات :

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ) : العهد ما ألزم الإنسان به نفسه أو ألزمه به غيره بموافقته ، وعهد الله يعم كل تكليف من الله ، ويدخل فيه البيعة على الإسلام .

(وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ) : المراد من نقضها عدم الوفاء بها .

(كَفِيلًا) : شاهدًا أو رقيبًا . (نَقَضَتْ غَزْلَهَا) : حلَّته بعد فتله وإحكامه .

(أَنْكَاثًا) : جمع نِكْث على وزن حِمْل وهو الصوف بعد حله .

(دَخَلًا بَيْنَكُمْ) : أى خديعة ومفسدة . (أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ) : أكثر منها مالا وأعز نفرًا .

التفسـير

٩١ - (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ) :

لما ذكر سبحانه فى الآية السابقة الأمور التى يترتب عليها إصلاح الفرد واستقرار الجماعة على سبيل الإجمال . أتبع ذلك تفصيل بعض ما أجمل ليوضح لعباده معالم الطريق إلى الأَمْنِ

والسلامة فقال تعالى: (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذا عاهَدْتُمْ) أى التزموا الوفاء بكل عهد وبيعة لله تعالى ، ويدخل فيها البيعة على الإسلام ، والنصرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله سبحانه : (إِذا عَاهَدْتُمْ) بعد قوله : (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ) لتأكيد وجوب التزامهم بالوفاء ، وذلك بتذكيرهم بأن هذا العهد قطعوه على أنفسهم برغبة منهم واختيار .

(وَلَاتنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا) : أى لاتحنثوا فى الأيمان التى تحلفون بها عند البيعة وغيرها ، ولا سيما الأيمان التى أكدتموها بتكرارها وتنويعها .

(وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا) :أى رقيبًا يتكفل بوفائكم ، حينما تعاقدتم ، فلا سبيل لكم إلى نقض العهد والحنث فى الأيمان لأن الكفيل مراعٍ لحال المكفول مهيمن عليه ، فلا يستطيع الإفلات من قبضته ، فكيف إذا كان هذا الكفيل ، هو الله الذى بيده مقاليد السموات والأرض يعاقب الغادرين ، ويثيب الأوفياء .

(إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ) : من نقض المواثيق والعهود أو الوفاء بها ، وفى هذه الجملة تعليل للنهى عن نقض الأيمان ، مشعر بالوعد على الوفاء والوعيد على الغدر

٩٢ ـ (وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا) :

أى ولا تكونوا فى نقضكم لما تعقدون من عهود كالمرأة الحمقاء التى كانت تغزل غزلها قويًّا متماسكًا ثم تنقضه من بعد ما أحكمته ، تنقضه أنكاثًا أى طاقات ، وذلك بفك أجزائه بعضها من بعض ونفشه لتعاود غزله وتلك حماقة لا تعدلها حماقة ، ويراد من هذا التشبيه تقبيح حال النقض للعهد ، بتمثيل الناقض له بحال هذه المرأة المعتوهة فى أخس أحوالها ، تنفيرًا منه وتقبيحًا له . حيث جعل فى عداد حمقى النساء ، والكلام من باب ضرب المثل ، ولم يقصد به امرأة معينة ، كما قاله مجاهد وقتادة .

(تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ) : الدخل فى اللغة ما دخل فى الشىء وليس منه ، والمراد به هنا الغش والخديعة والمعنى : لا تكونوا فى نقضكم للعهود مشابهين للمرأة التى سبق بيان شأنها ، حال كونكم متخذين أيمانكم التى حنثتم فيها خديعة ومفسدة حيث جعلتموها وسيلة للغدر وعدم الوفاء وكان من حقها عليكم أن تكون سبيلا إلى أن تلتزموا بما عاهدتم الله عليه ، والجملة مستأنفة على سبيل الاستفهام الإنكارى تقديرًا . أى أتتخذون أيمانكم دخلا بينكم بمعنى لا ينبغى أن يقع ذلك منكم .

(أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ) :أى لاتنقضوا العهود طمعًا فى التحالف مع جماعة هى أكثر مالا وأعز نفرًا ، بدل جماعة أخرى أقل منها وأهون ، كما كانت تفعل قريش ، فكانوا ينقضون العهود مع حلفائهم، ويحالفون أعداءهم إذا ما رأوا فيهم قوة ومنعة ، قال مجاهد : كانوا يحالفون الحلفاء فيجدون منْ هُو أكثر منهم وأعز نفرًا فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك فنهوا عن ذلك ا هـ - وعلى هذا تكون الآية تحذيرًا للمؤمنين أن يغتروا بكثرة قريش وسعة أموالهم ، فينقضوا بيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأيًّا كان السبب فالآية قاعدة عامة تحض على الوفاء بالعهود .

والمعنى الإجمالى للآية : ولاتتخذوا أيمانكم للخديعة والمكر ، بأن تحلفوا للناس على ما عاهدتموهم عليه ليطمئنوا إليكم ، ثم تغدروا بهم رغبة فى إرضاء أمة أقوى من الأمة التى عاهدتموها ، لتكون قوة لكم ومنعة بدلا منهم .

وإذا كان الله سبحانه قد نهى عن الغدر والحالة هذه . فلأن ينهى عنه مع التمكن والقدرة الذاتية بطريق الأولى .

(إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ) : أى إنما يختبركم بكثرة أمة عن أمة، لينظر أتتمسكون بعهد رسول الله عليه الصلاة والسلام؟ أم تخدعكم كثرة قريش وقوة شكيمتهم وقلة المؤمنين وضعفهم حسبما يدل عليه ظاهر الحال . أو يختبركم أيها المؤمنون جميعًا بهذا التشريع فى عهودكم ومواثيقكم ليظهر ما تضمرونه من غدر أو وفاء .

(وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) : فى الدنيا ، فيجازى كل عامل على عمله خيرًا كان أو شرًا . وستجد كل نفس ما عملته محضرًا ، لاتخفى منه خافية ، وفى ذلك إشارة واضحة إلى الإنذار والتحذير .

٩٣ - (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً) : أى ولوشاء الله إلجاءكُمْ على الإيمان لجمعكم عليه وجعلكم أمة واحدة .

(وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ) : أى ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك حيث أضل فريقًا وهدى آخر ، فأما الفريق الأول . فهو من استحب العمى على الهدى ، وأما الفريق الثانى فهو من آثر الحق على الباطل ، فقد اقتضت عدالته أن يجعل لعباده اختيارًا ، فمن اختار شهوات الدنيا على طاعة ربه . تركه وما يريد تبعًا لاختياره وإصراره ، ومن

اختار رضا الله بالعمل الصالح سهّل له ما أراد تحصيله بدافع مما عنده من رغبة واختيار. وفي ذلك يقول الله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ».

(وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ): أى وتأكدوا بلا شك أنكم ستسألون جميعاً يوم القيامة سؤال محاسبة عن عملكم فى الدنيا، لينال كل عامل جزاء عمله ثوابًا أو عقابًا.

(وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾)

المفردات:

(الدَّخَلَ): الغدر والمكر والخديعة ونحوها.

(فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا): زَلَلُ القدم حسب اللغة زلقُها فى طين ونحوه، ويُكنى به عن الوقوع فى البلاء والمحنة بعد العافية والنعمة كما هنا (السُّوءُ): المكروه.

(بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللهِ): بسبب إعراضكم عن أحكام دينه، فهى سبيله إلى الوفاء بالعهود والأيمان وسائر الفضائل. (ثَمَنًا قَلِيلًا): عرضًا قليلا، (يَنْفَدُ): يذهب ويفنى.

التفسير

٩٤ - (وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ) الآية.

تحذير صريح من الله لعباده من اتخاذ الأيمان دخلا أى خديعة، بعد تحذيرهم فيما سبق تلميحًا واستنكارا فى قوله سبحانه: «وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ».. الآية قصدًا إلى المبالغة فى قبح الغدر المنهى عنه، وللتمهيد لقوله سبحانه:

(فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا) :

والمعنى : احذروا هذه الأيمان الكاذبة لئلا تحيد قدم عن سبيل الإسلام بعد رسوخها فيه ، وإفراد القدم وتنكيرها للإشعار بأن زلل أى قدم ذنب عظيم وإثم كبير ، فكيف بالأقدام الكثيرة . وهو مثل يضرب لكل من كان على الطريق المستقيم فجانبه .

(وَتَذُوقُوا السُّوءَ) : أى ما يسوءكم من العذاب الدنيوى ومختلف المكاره .

(بِمَا صَدَدْتُّمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ) : بسبب إعراضكم عن دين الله وعدم الاهتمام بتعاليمه . أو بما تسببتم فيه من صد غيركم عن هذا الدين . لأن الكافر إذا رأى المؤمن قد عاهد ثم غدر أو حلف فحنث أو نقض عهد رسول الله وارتد . لم يبق له وثوق بدين الله ، وكان داعيا له إلى شدة الإعراض عن الإسلام .

(وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) : أى ولكم فى الآخرة عذاب لايعلم مداه ولايحيط بقدره إلا الله جل شأنه . لقاء ما اقترفتم من كبائر وسيئات .

٩٥ ـ (وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ . .) :

قيل المراد من عهد الله ؛ بيعة رسوله صلى الله عليه وسلم على الإيمان أو هو الآيات الداعية إلى إيجاب المحافظة على العهود والأيمان .

والمعنى : لاتستبدلوا به ولا تعتاضوا عنه . (ثَمَنًا قَلِيلاً) : أى لا تأخذوا بمقابل عهده سبحانه عرض الدنيا وزينتها . فإن هذا العرض مهما كثر فى موازينكم فإنه يكون ضئيلا بالنسبة إلى عطاء الله . أو هو عرض يسير فى واقعه وحقيقته فلا يحل لأحد أن يتناوله ، ويتخلى عن عهد الله الذى يجب الوفاء به . ويستحق الوفىُّ به عند الله أجرًا عظيمًا أما عرض الحياة الدنيا فهو قليل وزائل كما قال تعالى : « قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى ». ويشار بالثمن القليل إلى ما كانت تعد به قريش ضعفاء المسلمين للارتداد عن الإسلام ، وقال ابن عطية : هذا نهىٌ عن الرشا وأخذ الأموال على ترك مايجب على الآخذ فعله . أو فعل ما يجب عليه تركه ، وعلى ذلك فالمراد بعهد الله ما يعم ما سبق وغيره .

(إِنَّمَا عِنْدَ اللهِ) : أى إن الذى عند الله من نصر وتوفيق وثواب أخروى دائم .

(هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ). من هذا الثمن القليل الذى يعدونكم به لإغرائكم بنقض العهود، أو الذى يصل إليكم عن أى طريق ، فى مُقابل ترك عهد الله والتخلى عنه .

(إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) : أى إن كنتم من أهل العلم والإدراك والفهم. فتدبروا التفاوت البين بين خيرى الدنيا والآخرة. وبين ما يمقته سبحانه وما يرضى عنه .

٩٦ - (مَاعِندَكُمْ يَنفَدُ ..) :

أى مالديكم من خيرات الدنيا وطيباتها يذهب وينتهى مهما طال به الأمد، وامْتدَّ به الزمن . وكثر منه العدد .

(وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ) : فهو يعطيكم من فيض رحمته . وخزائن نعمه التى لانفاد لها ولا فناء لنعيمها فى الدنيا والآخرة . أما حصول ذلك فى الآخرة فظاهر . وأما فى الدنيا فلأن نعيمها موصول بنعيم الآخرة ومستتبع له ، ولهذا الارتباط كان النعيمان من الباقيات الصالحات ، ومن هنا كان التعبير فى الآية بلفظ (باقٍ) أولى من التعبير بلفظ يبقى لإفادة الدوام والاستمرار .

(وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) : أكَّد سبحانه النص على منح الصابرين أجرهم الخاص بهم بجملة القسم (وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم) المعبر فيها بنون العظمة ، لحفزهم على قوة الاحتمال والثبات على إيذاء المشركين لهم . والصبر على مشاق التكاليف التى تنتظم احتمال الأذى فى سبيل الوفاء بالعهود والبر بالأيمان .

والمعنى : ولنجزينَّ الذين صبروا على مشاق التكاليف الشرعية ومنها الوفاء بالعهد ، - لنجزينهم - بحسب أحسن أعمالهم . فيكون عطاؤنا لهم جزاء الأدنى من هذه الأعمال كعطائنا لهم جزاء الأعلى منها من الأجر الجزيل ، تفضلا منًّا وكرمًا ، وتلك عِدَةٌ كريمة بغفران ماقد يعترى صبرهم على مشاق التكاليف من تقصير أو قصور ، فإن أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون يقتضى هذا التجاوز والغفران .

(مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾)

المفردات :

(حَيَاةً طَيِّبَةً) : يراد بها حياة هنيئة مرضية .

(قَرَأْتَ) : أردت القراءة . (الرَّجِيمِ) : المطرود من رحمة الله .

(سُلْطَانٌ) : تسلط وقهر . (يَتَوَلَّوْنَهُ) : يتخذونه وليًّا يتبعون أمره .

التفسير

٩٧ - (مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ) :

شروع فى ترغيب المؤمنين جميعًا وحثهم على كل عمل صالح . تدعو إليه شرائع الإسلام وتعاليمه . إثر ترغيب جماعة منهم فى الثبات على العهد والاستمساك بما هم عليه من عمل صالح خالص مهما قدم لهم من المغريات على نكثه .

والمعنى : من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى من المكلفين وهو مصدق تمام التصديق بما جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . فإن أعمال الكفرة لا اعتداد بها . ولا وزن لها مهما كان فيها من البر . وأوثرت الجملة الإسمية فى قوله (وَهُوَ مُؤْمِنٌ) لدلالتها على الدوام والاستمرار .

(فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً) : أى فلنعطينَّهُ فى الدنيا ما تطيب به حياته من كل ما يتطلبه عيشه ، من سعة فى المال . وبركة فى الصحة والعيال .أو بما وهبناه من قناعة ورضا بما قسم له . وتوقُّعٍ للأجر العظيم فى آخرته . وقيل : هى حياة الآخرة التى تكون فى الجنة .لأنها حياة بلا موت ، وغنى بلا فقر . وصحة بلا سقم . وسعادة بلا شقاوة . أخرج ابن جرير .

وابن المنذر وغيرهما عن الحسن قال : ما تطيب الحياة لأحد إلا فى الجنة ، وقيل هى حياة البرزخ ففيها يشعر الميت بأنه من أهل السعادة أو من أهل الشقاء ، ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله تعالى من عذاب القبر .

(وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَاكَانُوا يَعْمَلُونَ) : أى ولنجزينهم فى الآخرة جزاء موافقا لأحسن أعمالهم حسبما نفعل بالصابرين الذين ذكر جزاؤهم فى الآية التى سبقت .

وقد ذكر الجزاء هناك خاصا بالصابرين ، وهنا عاما لبيان شموله لكل من يعمل عملا صالحا خالصا لوجه الله . وذلك لا يدع أى مجال لشائبة التكرار بين الآيتين حيث اختلف الغرض المقصود من كل منهما .

٩٨ - (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ) :

بعد أن ذكر سبحانه أن أساس الجزاء الموفور هو صلاح العمل واستقامته . جاءت هذ الآية لبيان مايصان به العمل الصالح ويخلص من شوائب النقص أو الفساد .

والمعنى : فإذا أردت قراءة القرآن فاسأل الله سبحانه أن يعيذك ويحفظك من وساوس الشيطان المطرود من رحمة الله ، والأمر بالاستعاذة منه للندب عند جمهور العلماء ، وروى عن الثورى وعطاء أنه للوجوب . نظراً لظاهر النظم الكريم ، وهو مخالف للمنقول عن جمهور العلماء ، والخطاب عام لكل مسلم يقرأ القرآن الكريم ، وهذا هو الذى يقتضيه السياق وقيل إنه خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ، وتوجيه الخطاب إليه على هذا الرأى للتنبيه على أنها لغيره صلى الله عليه وسلم آكد . فإنه صلى الله عليه وسلم مُحصَّن من الشيطان ، ومع هذا فقد أُمر بالاستعاذة منه ، فماظنك بغيره ، وصيغة الاستعاذة المأثور هى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم . لتضافر الروايات على أنه صلى الله عليه وسلم كان يستعيذ كذلك . وروى عن ابن مسعود أنه قرأ على النبى صلى الله عليه وسلم : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، فقال له صلى الله عليه وسلم : « يا ابن أم عبْدٍ : قُلْ أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . هكذا أقرأنيه جبريل عن القلم عن اللوح المحفوظ » روى ذلك الثعالبى والواحدى.

٩٩ - (إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) :

أى أنه ليس للشيطان تسلط وتأثير على المؤمنين المتوكلين على الله ربهم ، حيث إن دعوته لهم إلى الشرك والمعاصى غير مستجابة ، ووسوسته لاتؤثر فيهم ، لاعتصامهم بالإيمان المتين ،

وإخلاصهم العبادة لله رب العالمين ، وتوكلهم عليه وحده فى كل مايعملون وما يتركون ، واستعانتهم به على تحمل مشاق التكاليف ونزغات الشيطان ، أو أنه كما قال الثورى : ليس له عليهم سلطان يوقعهم فى ذنب لايتوبون منه .

١٠٠ - (إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ) :

أى ما سلطانه وتأثيره وهيمنته وولايته ؛ إلا على أتباعه الذين يطيعونه ويستجيبون لإغرائه ووسوسته إلى درجة الشرك ، وهم بمعزل فى غوايتهم هذه عن القهر والإكراه ، فلو أصروا على عصيانه لنجوا من كيده ، حيث يقول جل شأنه حكاية عن إبليس : «وَمَا كَانَ لِى عَلَيْكُم مِن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى» وفى ذلك يقول الله تعالى لإبليس : «إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ» [1] .

(وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾)

المفردات :

(بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ) : جعلناها بدلا منها لإحلال حكم محل آخر .

(١) سورة الحجر ، الآية : ٤٢

(مفتَرٍ) : مختلق وكاذب. (رُوحُ الْقُدُسِ) : جبريل عليه السلام، والقدس الطهر.

(يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ) : يميلون إلَيْه من الإلحاد وهو الميل عن القصد. ومنه اللَّحْدُ لميل الشق فيه إلى الجنب. (أَعْجَمِيٌّ) : أى أنه فى نطقه عجمة تتنافى مع الفصاحة القرآنية.

التفسير

١٠١ - (وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ) :

أى وإذا أنزلنا من القرآن الكريم آية تفيد حكما جديدا، وجعلناها مكان آية فى شريعة سابقة تخالفها فى الحكم أو جعلنا معجزة بدل معجزة كانت لنبى سابق.

(وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ) : على أنبيائه من أحكام أو معجزات ويعلم وجه مناسبته لزمانه، فلكل وقت من الأحكام والآيات مايناسبه، فما يكون مصلحة فى زمن. قد يكون مفْسدةً فى زمن غيره، وما يكون معجزة لنبيٍ مع قوم بعث إليهم قد لايتناسب مع آخرين ليحصل به التحدى والإفْحام.

وجملة (وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ) ذكرت اعتراضا بين الشرط والجواب لتوبيخ المشركين والتنبيه على فَسادِ رَأْيهم، لأنهم لو أنصفوا أنفسهم لتركوا أمر ذلك إلى علم الحكيم الخبير.

وحكى سبحانه جرمهم الذى اقترفوه عندما وقع التبديل، فقال تعالى:

(قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ) : أى قال الكافرون مخاطبين الصادق الأمين : ما أنت إلا مُتقولٌ على الله مختلق نسبة الأحكام إليه لأنك تنسخ أحكاما جاءت فى الرسالات السابقة، مع أنها من عند الله، ولم يقولوا ذلك عن دراية (بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) : شيئًا أصلا فهم جهلاء أغبياء أولا يعلمون أن فى التبديل حِكَماً بالغة.

وإسناد عدم العلم إلى أكثرهم، لأن بعضهم كان يعلم يقينا صدق محمد صلى الله عليه وسلم : وإنما يصفه بالافتراء مكابرة وعنادا.

١٠٢ - (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ) :

قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين الذين يصفونك بافتراء القرآن، قل لهم ليس هذا القرآن مفترى بل نزله روح القدس جبريل عليك بالحق من ربك الذى يحيطك بآثار ربوبيته، نزله عليك ليُثبت الذين آمنوا على الإيمان ويبعدهم عن ضلال العقيدة، لما فيه من الحجج والبراهين المطمئنة للقلوب، وليثبتهم على التصديق بأن النسخ فيه لمصلحة

البشر . وليهديهم إلى سبيل الرشاد ، ويبشرهم بحسن الجزاء وكريم اللقاء ، وفيه دليل على أن أضداد الصفات المذكورة للمفترين من الكفار ، فلهم خزى الدنيا وعذاب النار .

وإطلاق روح القدس على جبريل عليه السلام ، لأنه ينزل بالقدس أى الطهر من الله ، والمراد به الوحى الذى يطهر النفوس من الجهل والإثم ، وقيل لطهره من الأدناس البشرية ، فهو من إضافة الموصوف إلى صفته ، فكأنه قيل : نزله الروح المقدس . . أى المطهر – كما يقال : حاتم الجود . . أى حاتم ذو الجود .

١٠٣ – (وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ) :

رد من الله سبحانه لفرية خبيثة أثارها كفار مكة حول محمد صلى الله عليه وسلم . حيث قالوا : إنه لايعلمه هذا القرآن إلا بشر نعرفه ، يريدون به غلاماً أعجمياً كان يقرأ التوراة والإنجيل ورأى فيهما أوصاف النبى صلى الله عليه وسلم ، فأسلم وحسن إسلامه بعد أن تحقق من صفات النبوة فيه . ولقد كذبهم الله تعالى فى زعمهم هذا بقوله جل شأنه :

(لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ) :أى كلام الرجل الذى ينسبون إليه تعليم الرسول ، ويميلون إليه فريتهم ماهو إلا كلام أعجمى لا يفهمه عربى .

(وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) : أى وهذا القرآن الذى تدعون أن الرسول صلى الله عليه وسلم تعلمه من أعجمى . إنما هو كلامٌ عربى بلغ القمة فى البيان والفصاحة والبلاغة ، حتى عجزت العرب عن محاكاته ، وهم على ماهم عليه بلاغة وفصاحة وقوة بيان ، وعذوبة لفظ ، وسلامة قول : بل لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لاستبان عجزهم . وظهر قصورهم ، ولو كان بعضهم لبعض نصيراً ومعيناً ، فكيف تجعلونه من تعليم بشر أعجمى ، وهو لا يمكن أن يصدر إلا عن واهب القوى والقدر جل وعلا .

١٠٤ – (إِنَّ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ) :

المراد بالآيات هنا القرآن الكريمُ ، كما دلت عليه الآيات السابقة .

والمعنى : إن الذين لايؤمنون بآيات القرآن ولايصدقون بأنها آيات الله وينسبونها تارة إلى الكذب والافتراء ، وأخرى إلى أنها مُعلَّمة من بشر (لايَهْدِيهِمُ اللهُ) :أى لايوفقهم إلى طريق النجاة ، لعلمه سبحانه أنهم ليسوا أهلا لذلك ، لسوء حالهم التابع لسوء اختيارهم.

(وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ): فى الآخرة لكفرهم بآيات الله ، وإعراضهم عن هداه .

١٠٥ -(إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لَايُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ) :

ردٌّ لقولهم إنما يعلمه بشر ، ببيانُ أن الذين ينسبون الافتراء والكذب إلى رسول الله ماهم إلا الذين اعتادوا الكفر بآيات الله وحججه الدالة على وحدانيته ،فلا غرابة فى تكذيبهم رسول الله المؤيد بآياته الواضحة فى القرآن العظيم الذى أعجز... الجن والإنس ، وظهر لهم عجزهم عن الإتيان بسورة مثله ، وثبت بذلك أنه منزل من عند الله ، فهم بإنكارهم هذه الحقيقة يفترون على الله الكذب ، حيث زعموا أن ماهو كلام الله مفترى عليه ، ولا يجرؤُ على افتراء الكذب وقلب الحقائق إلاالكافرون الذين اعتادوا على تكذيب آيات الله وبراهينه أمثالهم. ويصح أن يكون المعنى : ما يفترى الكذب وينسبه إلى الله إلا الذين لايصدقون بالبراهين والآيات الدالة عليه سبحانه ، ومحمد صلى الله عليه وسلم ليس منهم ، فهو أكمل الناس علما بربه ، وإيمانا بآياته الدالة عليه ، وقد عرفتموه بينكم ودعوتموه بالصادق الأمين ، فكيف يفترى الكذب على الله ، كما نسبتموه إليه زورا وبهتانا .

(وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ) : أى أولئك الموصوفون بعدم الإيمان بآيات الله ،هم المتناهون فى الكذب ، إذ لا كذب أشنع من تكذيب آيات الله والطعن فيها ، مع وضوح أنها آياته وبراهينه سبحانه وتعالى .

(مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُوا۟ ثُمَّ جَٰهَدُوا۟ وَصَبَرُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٠﴾)

المفردات :

(أُكْرِه) : أُجْبر على التلفظ بكلمة الكفر .

(اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) : آثروها على الآخرة فعملوا لها .

(طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ) : ختم عليها ،والمقصود أنه حال بينها وبين الحق لإصرارها على الكفر.

(مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا) : من طابت به نفسه .

(لاَجَرَمَ) : لا محالة ، (فُتِنُوا) : امتُحِنُوا وابتُلوا .

التفسير

١٠٦ - (مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ) :

هذا ابتداءُ كلام . لبيان حال من كفر بآيات الله بعد إيمانه إثر بيان شأْن من جحدها ولم يؤْمن بها أصلا .

والمعنى : من جحد وجود الله أو أنكر دينه الحق من بعد إيمانه ، وسلوكه سبيل المؤمنين فإن الله يغضب عليه ويعذبه عذابا عظيما [١] . ثم استثنى الله من هذا العقاب من أكره على الكفر بقوله : (إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ) : أى إلا من أرغم على الكفر بشىء يخشى منه على نفسه أو على عضو من أعضائه . فكفر . وحاله فى اطمئنان قلبه . وسلامة عقيدته لم تتغير ، فلم يخالط يقينه أى شك أو تردد فلا يضره هذا الكفر . بل هو فى كنف الله ورعايته . (وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا) : أى لم يكن مكرها على الكفر . بل آثره واطمأنت إليه نفسه ، وتفتح له قلبه . وانشرح به صدره (فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ) : أى فينزل عليهم ويحل بهم غضب عظيم من الله . لايدركون كنهه . وقد أشعر إظهار اسمه الجليل فى معرض الوعيد بشدة العذاب لهؤلاء الكافرين المتعمدين للكفر .

وفى سبب نزول هذه الآية روى العوفى عن ابن عباس : أنها نزلت فى عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فوافقهم على ذلك مكرها ، وجاء معتذرا إلى النبى صلى الله عليه وسلم . فأنزل الله هذه الآية . هكذا قال الشعبى وأبو مالك وقتادة ، وفى رواية ابن جرير . فشكا ذلك إلى النبى صلى الله عليه وسلم . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « كيف تجد قلبك » قال مطمئنا بالإيمان . قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إن عادوا فعد » .

١٠٧ ـ (ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ) :

الإشارة راجعة إلى وعيد من كفر بعد الإيمان . أى ذلك الوعيد السابق . بإنزال الغضب والعذاب العظيم عليهم منه تعالى بسبب إيثارهم الدنيا وزينتها . وتعلقهم بمطامعها ومفاتنها وإعراضهم عن الآخرة . إيثارا للعاجل الفانى . على النعيم الباقى .

(وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) : أى وذلك الوعيد أيضا بسبب أن الله تعالى لايهدى القوم الكافرين إلى الإيمان ، على سبيل القهر والإلجاء . لأنه ثبت فى علمه المحيط اختيارهم الكفر على الإيمان وإصرارهم عليه . فلهذا لم يعصمهم من الزيغ . ولا مما يؤدى إليه من إنزال الغضب عليهم . والعذاب العظيم بهم . فمن بعد عن الله بعد الله عنه وأدناه من عقابه . ومن تقرب إلى الله قرب الله منه وأدناه من رحمته .

---

(١) هذا الجواب الذى قدرناه هنا مستفاد من قوله تعالى فيما سيأتى : (ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم) ، فحذف من الأول لدلالة الثانى عليه .

١٠٨ - (أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ . .) :

أى أولئك الموصوفون بما ذكرته الآيات السابقة من ألوان الكفر ، وقبائح الأعمال ، ختم الله على قلوبهم فصارت مغلقة لاتقبل الحق . وعلى أسماعهم فلم يعودوا يسمعون سماع فهم وتدبر كأنهم صُمّ . وختم على أبصارهم فلا تحسن رؤية ما يحيط بهم من عجائب الكون التى تتحدث بقدرة الخالق ، ووحدانية المبدع جل شأنه . (وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُون) : أى وأولئك هم الغارقون فى الغفلة البالغون غايتها ومنتهاها دون سواهم . إذ لاغفلة أقوى فى آثارها من الغفلة عن تدبر العواقب الوخيمة ، والتفكير فى المصالح العظيمة .

وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما . أنه قال : غافلون عما يراد بهم فى الآخرة .

١٠٩ - (لَاجَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ) :

أى لامحالة أنهم هم الخاسرون فى أخراهم ، حيث ضيَّعوا أعمارهم فيا لايفيد ، وصرفوها فى اقتراف المعاصى والآثام التى تفضى بهم إلى غضب الله عليهم . والخلود فى العذاب الأليم ، وكان عليهم أن يتجهوا إلى ماخلقوا له من توحيد الله وعبادته . وإلى كل عمل نافع لهم فى الدنيا والآخرة .

١١٠ - (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا) :

أى ثم إن ربك يامحمد نصير لمن هاجروا من دار الكفر إلى دار الإسلام .من بعد مافتنهم الكافرون وآذوهم بالعذاب لحملهم على الارتداد ، ثم جاهدوا أنفسهم وصبروا على أذى معذبيهم ، فلم يشكوا ولم يكفروا . بل ظلوا على سلامة عقيدتهم التى يخفونها و يضمرون التمسك بها .

والآية نزلت فى عمار وخباب ونحوهما ممن أوذوا فى سبيل الله .

وقرأ ابن عامر : « مِن بَعْدِ مَافَتَنُوا » بالبناء للفاعل أى من بعد ما فتنوا غيرهم : أى من بعد ما عذب المشركون المؤمنين كالحضرمى أكره مولاه جبرًا على الارتداد ثم أسلما وهاجرا .

وأصل الفتن إدخال الذهب فى النار لتمييز الجيد من الردىء . ثم أطلق على البلاء وتعذيب الإنسان مجازًا . (إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) :إن ربك يا محمد من بعد ما فعلوه من الهجرة والجهاد فى سبيل الله والصبر على المشاق لعظيم المغفرة . يغفر لهم ما أكرهوا عليه من كلمة كفر قالوها ليتقوا بها العذاب . ويغفر لهم غيرها من السيئات - إن ربك من بعد

ذلك – لواسع المغفرة والرحمة فيتفضل بإثابتهم على ما صنعوا من هجرة وجهاد وصبر ، من بعد فتنتهم وإيقاع العذاب بهم . وفى إضافة الرب إلى ضميره صلى الله عليه وسلم . إشارة إلى إظهار كمال اللطف به ، والعناية بشأنه ، مع الإشعار بأن إفاضة آثار الربوبية عليهم من المغفرة والرحمة ببركته عليه الصلاة والسلام لكونهم أتباعًا له صلوات الله عليه وسلامه .

(* يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾)

المفردات :

(تُجَادِلُ عَن نَّفْسِها) : أى تدافع عن ذاتها بالاعتذار .

التفسير

١١١ – (يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِها ...) الآية .

لما ذكر الله تعالى فى الآيات السابقة طرفًا مجملا من طغيان المشركين ، وقسوتهم فى تعذيب الضعفاء من المؤمنين – عقب ذلك بذكر الحساب على الأعمال : « يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ »[1] ودفاع كل إنسان عن نفسه ، وأن كل مكلف ينال جزاء ما عمل إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر .

والمعنى : اذكر أيها المكلف من الناس – اذكر اليوم الذى تجىء فيه كل نفس تدافع عن ذاتها وتعتذر بشتى المعاذير جاهدة فى خلاصها ، لايشغلها إلا شأنها من شدة الكرب الذى يحيط بها ، حتى تفر من أقرب الأقربين إليها ، كما قال الله جل شأنه : « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ . وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ »[2] .

ومن هول الكرب فى ذلك اليوم ، يقسم المشركون كاذبين ، يقولون : « وَاللهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ »[3] ويتبرأ المتبوعون والتابعون بعضهم من بعض ، كما قال جل سلطانه : « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ

(١) سورة المطففين : الآية : ٦ (٢) سورة عبس : الآيات : ٣٤ – ٣٧

(٣) سورة الأنعام ، من الآية : ٢٣

اتَّبَعُوا لَوْ أنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرات عليْهِمْ وَمَاهُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ » [١] .

(وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّاعَمِلَتْ) :

أى ويعطى الله تعالى فى ذلك اليوم العظيم كل نفس جزاء الذى عملته . وافيًا غير منقوص « فَمَن يَعْمَلْ مثْقَالَ ذَرَّةٍ خيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْملْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » [٢] .

وضمير الجمع فى قوله عز من قائل : (وَهُمْ لَايُظْلَمُونَ) : عائدعلى كل نفس . أىوكل النفوس التى يجزيها الله يوم القيامة لايظلمون بزيادة فى العقاب . ولا ينقص فى الثواب ، ولا تعاقب نفس ما بغير ذنب ، ذلك لأن الذى يتولى الجزاء يومئذ ، هو الحكم العدل اللطيف الخبير ، الذى يقول وقوله الحق : « إنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مثْقَالَ ذرَّةٍ وَإن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا » [٣] .

وبالجملة فقد ختمت الآية بقوله سبحانه : (وَهُمْ لَايُظْلَمُون) لتأكيد عدالة الله مع المقصرين فى عبادته وغيرهم ، فكلٌّ يأُخذ جزاءه عادلا ، ويضاعفُ أجر حسناته حسب كيفية أدائها ، ويجازى على سيئاته بمثلها .

(وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾)

المفردات :

(وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا) : المثل فى هذه الآية ونظائرها ؛ الحال أو القصة التى لها شأنٌ وفيها غرابة . وضرب المثل ذكره للاعتبار به .

(١) سورة البقرة ، الآيتان : ١٦٦ – ١٦٧ (٢) سورة الزلزلة ، الآيتان : ٧ ، ٨
(٣) سورة النساء ، الآية : ٤٠

(قَرْيَةً) : المراد أهل قرية . (رَغَدًا) : واسعاً سهلا .

التفسير

١١٢ - (وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِن كُلِّ مَكَانٍ ...) :

أشار الفخر الرازى فى ربط هذه الآية بما قبلها بقوله : اعلم أنه تعالى لما هدد الكفار بالوعيد الشديد فى الآخرة هددهم أيضًا ببعض آفات الدنيا ، وهى إصابتهم بالجوع والخوف كما ذكره فى هذه الآية : اهـ

ولما كان هذا المثل ينطبق على أهل مكة ، ذهب كثير من المفسرين إلى أن القرية فى الآية الكريمة هى مكة ، كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما . وقال ابن كثير : هذا مثلٌ أُريد به أهل مكة فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يتخطف الناس من حولها ، وكان يجبى إليها من ثمرات كل شئ فكفرت بأنعم الله وأعظمها بعثة محمد إليهم ، فعوقبت بالجوع والخوف : اهـ . بتصرف . ويشارك أهل مكة فى انطباق المثل عليهم كل من حذا حذوهم وسار سيرتهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وكفى بالقرآن حجة بالغة . وعظة ناطقة .

والمعنى : وجعل الله تعالى مثلا قرية كانت ذات أمن وسلامة من كل مَخُوف ، لا يهيج أَهْلَها أحدٌ بإغارة أو اعتداءٍ عليها ، وكانت (مُطْمَئِنَّةً): ساكنة قارَّة ، لا يزعج أهلها مزعج ، ولا يرتحل عنها أحد بسبب جوع أو خوف . يسوق الله إليها أقواتها واسعة سهلة من كل بلد ، وتحمل إليها من كل مكان برًّا وبحرًا[١] .

(فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) :

أى جحد أهل هذه القرية نِعم الله عليهم فقابلوها بالكفر بدل الشكر ، وبالمعصية بدل الطاعة فعاقبهم الله بعقاب من الجوع والخوف تمكن منهم ، وأحاط بهم إحاطة اللباس بلابسه ـ بسبب ما كانوا يصنعونه من الكفر والمعاصى.

والتعبير عن سيئاتهم بقوله سبحانه :(بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ). للإيذان بأن كفران النعم صار صناعة لهم وخلقًا راسخًا فيهم .

(١) والتعبير عن هذه الصيغة بالفعل المضارع (يأتيها رزقها) لإفادة أن أرزاقها متجددة وأما كونها آمنة مطمئنة ، فهو ثابت مستمر ، فلذا عبر عنه بالاسم المفيد للدوام والاستمرار .

ومن تتمة المثل قوله تعالى :

١١٣ - (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ) :

فقد جيء به لبيان أن ما صنعه أهل تلك القرية من الكفر بأنعمه سبحانه ، لم يكن امتهاناً للعقل وتحقيراً له فقط ، بل كان كذلك معارضة لرسولهم . أى ولقد جاء أهل تلك القرية رسول من أنفسهم ، هم أدرى الناس بأصله ونسبه وخُلُقه ، يخبرهم بوجوب الشكر على النعمة وينذرهم سوء عاقبتهم إن لم يقلعوا عن الكفر والمعصية . ففاجأوه بالتكذيب من غير تروٍّ ولا تدبر ، ثم استمروا فى كفرهم وعنادهم إلى أن حلَّ بهم عذاب الله بالجوع والخوف وهم متلبسون بالظلم واغلون فيه .

وترتيب أخذ العذاب على تكذيب الرسول جرى على سنة الله تعالى ، وهى أنه لايعذب من كفر به حتى يبعث إليهم رسولا يحذرهم عاقبة كفرهم ، ويرشدهم إلى آيات ربهم وفى ذلك يقول الله تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا »[1] .

ولقد تم المثل بعذاب القرية الظالمة ، وظهر جَلِيًّا أن حال أهل مكة أشبه بحال تلك القرية . فى السوء واستحقاق العذاب . فقد كانوا فى حرم آمن . ويُتَخطَّف الناس من حولهم ولا يمر ببالهم طيف من الخوف والفزع ، وكانت تجبى إليهم فيه ثمرات كل شيء رزقًا من لدنه سبحانه . استجابة لدعوة خليله إبراهيم عليه السلام ، إذ قال : « رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ »[2] .

ولقد جاءهم رسول من أنفسهم هو أعظم الناس خُلُقًا وأكرمهم معدنًا ونبلا . نشأ بينهم زكيًّا نقيًّا حتى سموه الأمين . قبل أن يرسله ربه رحمة للعالمين .

دعاهم رسول الله إلى الله . وأنذرهم . وحذرهم : ولكنهم آذوْهُ وكذبوه ، واستمروا فى تكذيبهم عنادًا وكبرًا . حتى أخرجوه وأصحابه من ديارهم وأموالهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله .

هنالك انتقم الله منهم واستجاب دعاء نبيه فيهم إذ قال : « اللَّهم أَعِنِّى عليهم بسبع كسبع يوسف » : فأصابتهم سنة أكلوا فيها العظام والميتة ، وكان أحدهم ينظر إلى السماء فيرى شبه الدخان من الجوع والجهد[3] .

(١) سورة الإسراء ، من الآية : ١٥ (٢) سورة البقرة ، من الآية : ١٢٦

(٣) اقتباس من حديث البخارى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، فى تفسير سورة الدخان .

(فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾)

المفردات :

(وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ): أى وما ذكر اسم غير الله تعالى عليه ، وسُمِّى الذكر على الذبيحة إهلالًا لأنهم كانوا يرفعون به أصواتهم .

(غَيْرَ بَاغٍ): أى غير ظالم لغيره .

(وَلَا عَادٍ) : ولا متجاوز ما يسد رمقه ويدفع جوعه .

التفسير

١١٤ - (فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالًا طَيِّبًا . . .) الآية .

الظاهر أن الخطاب فى هذه الآية لمن ضرب لهم المثل من كفار مكة وأمثالهم كما قدمنا ، لأنه هو الذى يقتضيه النظم الكريم ، فهو مفرَّع على التمثيل السابق ، وصادٌّ لهم عما يؤدى إلى مثل عاقبته .

والمعنى : وإذ تبين لكم حال من كفر بأنعم الله وكذب رسوله ، وما حل بهم - بسبب ذلك من العذاب فانتهوا عما أنتم عليه من الكفر والتكذيب ، والتحليل والتحريم بأهوائكم ، وكلوا مما رزقكم الله فى أرضه من الأنعام والحرث حال كونه حلالًا لا حرمة فيه ولا إثم ، طيبًا لا تعافه النفوس الكريمة .

(وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ) : بطاعته وطاعة رسوله .

والفاءُ فى المعنى داخلة على الأمر بالشكر ، وإنما أُدخلت على الأمر بالأكل ، لأن الأكل وسيلة إلى الشكر فكأنه قيل : فاشكروا نعمة الله عقب أكلها ، واعرفوا لها حقها ، ولاتقابلوها بالمعصية والكفران .

(إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) :

أى إن كنتم تعبدون الله كما تزعمون، فأطيعوه فيما أمركم به. واجتنبوا ما نهاكم عنه، ولا تحرموا ما أحل الله لكم، ولا تفتروا على الله الكذب بتحريم البحائر والسوائب ونحوها.

وقيل إن الخطاب فى الآية الكريمة للمؤمنين، وهو مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما، وعليه اقتصر ابن كثير.

ومعنى الآية على أن الخطاب فيها للمؤمنين خاصة:

وإذْ تبين لكم أيها المؤمنون حال من ضُرب لهم المثل من الكفار وما انتهوا إليه. فاسلكوا أنتم سبيل الشكر، وكلوا مما رزقكم الله وجعله لكم حلالًا طيبًا. ولا تحرموه على أنفسكم، واشكروا نعم الله عليكم بطاعته وطاعة رسوله، إن كنتم تخصون الله ربكم بالعبادة، كما هو مقتضى إيمانكم به وحده.

ويجوز أن يكون الخطاب فى الآية الكريمة للناس جميعًا مؤمنهم وكافرهم. فيشمل القولين السابقين، وهو مناسب لقوله تعالى: « يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ »[(١)].

ولعل هذا هو مراد شيخ المفسرين ابن جرير الطبرى إذ قال: يقول تعالى ذكره: (فكلوا أيها الناس مما رزقكم الله من بهائم الأنعام التى أحلها لكم - كلوه - حلالًا طيبًا مُذكّى بريئًا من الإثم. واشكروا الله على نعمه التى أنعم بها عليكم، من ذلك ومن غيره من النعم، إن كنتم تعبدون الله وحده فأطيعوه فيما يأمركم به وينهاكم عنه) اهـ بتصرف يسير.

ولما أمرهم الله تبارك وتعالى أن يأكلوا مما أحل لهم من رزقه، ناسب أن يبين لهم ما حرم عليهم ليعلموا أن ما عداه حلال طيب، وأن التحليل والتحريم بأمره سبحانه لا بأهوائهم فقال:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٨

١١٥ - (إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ ...) الآية .

أى ما حرم الله عليكم من المطعومات إلا هذه الأصناف الأربعة ، التى حرمها لمصلحتكم دينًا ودنيا :

أولها : (الْمَيْتَة) على أىِّ نحوٍ كان موتها ، وهى كل ما لم يُذكَّ ذكاة شرعية .

ويستثنى من الميتة السمك والجراد فقد أحلت ميتتهما ، لما أخرجه ابن ماجه والحاكم وغيرهما من حديث ابن عمر رضى الله عنهما مرفوعًا : (أُحلت لنا ميتتان ودمان : السمك والجراد ، والكبد والطِّحال) .

وثانيها : (الدَّم) والمراد به الدم المسفوح ، كما جاء صريحًا فى قوله تعالى : « قُل لَّا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا[1] » .

وإنما حرم الدم المسفوح : لأنه يحتوى على جراثيم الأمراض ، ويسرع إليه الفساد ، بخلاف المعقود وهو الكبد والطِّحال ، ولذا يحل أكله إذا كان من حيوان مذكًّى .

وثالثها : (لَحْمُ الْخِنْزِيرِ) فإنه قذر ، وأشهى الغذاء إليه القاذورات والنجاسات ، وهو ضار فى جميع الأقاليم ولا سيما الحارة منها . وأكل لحمه من أسباب الدّودة الشريطية الفتاكة : ومثل لحمه شحمُه وغضاريفه فإن جميع أجزائه قذر نجس ولو ذبح .

ورابع هذه المحرمات : (مَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ) أى ما ذكر اسم غير الله تعالى عليه .

حرمت الثلاثة الأُولى لخبث ذاتها ، وحرم ما ذكر اسم غير الله تعالى عليه لخبثه معنًى ، فقد ذكر عليه عند ذبحه اسم غير خالقه المنعم به .

والمراد بغير الله تعالى : ما يشمل الأصنام وغيرها من المعبودات .

وذهب جماعة من التابعين وأهل العلم ، إلى أن المراد بما أُهل لغير الله به : ما ذبح للأصنام ، لا ما ذكر عليه اسم المسيح أو عُزَير ، لقوله تعالى فى سورة المائدة – وهى من آخر السور نزولًا – : « وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ » . فالمراد بطعام الذين أُوتوا الكتاب : ذبائحهم ، كما روى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أمَّا مطلق الطعام كالخبز والفاكهة فإنه يحل من أىِّ كافر كان بالإجماع . قال الآلوسى فى تفسيرها :

(١) سورة الأنعام ، من الآية : ١٤٥ . والدم المسفوح هو المصبوب السائل من الحيوان .

واختلف العلماء فى حل ذبيحة اليهودى والنصرانى إذا ذكر عليها اسم عزير والمسيح، فقال ابن عمر رضى الله عنهما : لا تحل . وهو قول ربيعة ؛ وذهب أكثر أهل العلم إلى أنها تحل . وهو قول الشعبى وعطاء . قالا : فإن الله قد أحل ذبائحهم وهو أعلم بما يقولون ؛ وقال الحسن :إذا ذبح اليهودى والنصرانى فذكر اسم غير الله تعالى وأنت تسمع فلا تأكل . فإذا غاب عنك فكل . فقد أحل الله تعالى لك . ا هـ .

وإلى هذا الرأى نذهب . فلا نرى أكل ما علمنا أن اسم غير الله ذكر عليه عند ذبحه . ولو كان الذابح كتابيًا . وهذه المحرمات الأربع المحصورة فى هذه الآية .هى نفسها المحصورة فى آية البقرة وفى آية الأنعام . وأما ما زاد على هذه الأربع فى قوله تعالى: « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ والدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ . . . » الآية[1] فإنه مندرج فيها فالمنخنقة . والموقوذة . والمتردية . والنطيحة . وما أكل السبع ـ داخلة فى الميتة . وما ذبح على النصب داخل فيما أهل لغير الله به .

وبهذا تبين أنه تعالى حصر المحرمات ـ فى الأصناف الأربعة ـ فى هذه السور الأربع : فى العهد النبوى الكريم مكيّة ومدنية ؛ فإن سورتى الأنعام والنحل مكيتان ، وسورتى البقرة والمائدة مدنيتان . والمائدة من آخر ما نزل . وفى إعادة البيان قطع للأعذار ، وإزالة للشبه .

(فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

أى فمن دعته الضرورة الملحة إلى تناول شىء من هذه المحرمات . غير ظالم لمضطر آخر ، ولا متجاوز قدر الضرورة وسد الرمق[2] . فإن الله واسع الغفران . شامل الرحمة ، فلهذا يرفع عنه الإثم لاضطراره ويرحمه ولا يعاقبه ـ وقد صرحت آية البقرة برفع الإثم فى مثل هذه الحالة . وذلك فى قوله تعالى : « إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ . وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ »[3] .

هذا ، واستُدل بالآية الكريمة على أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة . على اعتبار أن الآية خطاب لجميع المكلفين : مسلمين وكافرين .

(١) سورة المائدة ، من الآية : ٣

(٢) أجاز مالك للمضطر إلى أكل الميتة أن يشبع منه ولا يقتصر على مايسد به رمقه .

(٣) سورة البقرة من الآية : ١٧٣

(وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾)

المفردات :

(لَا يُفْلِحُونَ) : أى لا يفوزون بمحبوب ، ولا ينجون من مكروه .

(مَتَاعٌ قَلِيلٌ) : أى انتفاع قليل لا يدوم .

التفسير

١١٦ - (وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ . . .) الآية .

لما حصر الله تبارك وتعالى المحرمات فى الأصناف الأربعة التى ذكرت فى الآيات السابقة جاء بهذه الآية لتأكيد ذلك الحصر بالنهى عن التحريم والتحليل بالأهواء .

والمعنى : ولا تقولوا فى شأن الذى تصفه ألسنتكم من البهائم - لا تقولوا الكذب فى شأن حل أكلها وحرمته ، كقولكم - فيما حكاه الله عنكم - : « مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ »[1] : وغير ذلك من أقاويلكم الباطلة التى لا دليل لكم عليها فى وحى الله وشرعه . ولكنها ناشئة عن الهوى والكذب على الله عز وجل .

أو المعنى : ولا تقولوا فى شأن البهائم هذا حلال وهذا حرام عند الله ، لكى تصف ألسنتكم الكذب بذلك القول ، فإنه دعوى من غير حجة ولا بينة . فإذا حكته ألسنتكم فقد صورت الكذب بصورته وأوضحته على حقيقته .

وقوله تعالى : (لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ) : معناه أن قولكم : هذا حلال وهذا حرام ، بدون حق . عاقبته أنكم تفترون على الله الكذب . وتقولون عليه ما لم يقل . وتلك كبيرة الكبائر .

---

(١) سورة الأنعام ، من الآية : ١٣٩

وخلاصة المعنى : لا تقولوا فى شأن الذبائح والأطعمة برأيكم تحلون وتحرمون دون علم أو وحى ، فإن قولكم هذا هو الكذب ؛ إذ لا سند له ولا دليل عليه .

ثم توعد المفترين على الله الكذب عامة فقال :

(إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ) : أى لا يفوزون بخير فى الدنيا ولا فى الآخرة ، اللهم إلا بانتفاع قليل زائل فى هذه الدنيا الفانية . كما قال تعالى :

١١٧ – (مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) :

أى متاعهم فى هذه الدنيا بنعيمها وزخرفها متاع ضئيل زائل لا يعتد به . ولهم فى الآخرة عذاب شديد الإيلام ، كما قال سبحانه : « قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ . متاعٌ فِى الدُّنْيا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُون »[1] .

ويدخل فى هذا الوعيد الشديد كل من أحل ما حرم الله ، أو حرم ما أحل الله ، بمجرد رأيه وهواه . ومن هنا كره كثير من السلف – ومنهم مالك – أن يقول المفتى : هذا حلال وهذا حرام فى المسائل الاجتهادية . وإنما يقال ذلك فيما نص الله تعالى عليه ، أو رسوله صلى الله عليه وسلم . ويقال فى المسائل الاجتهادية : إنى أكره كذا وكذا ، أو نحو ذلك ، فهو أبعد من أن يكون فيه توهم الافتراء على الله عز وجل .

قال ابن كثير : ويدخل فى هذا كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعى . ا هـ .

وعن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ » رواه الشيخان ، وفى رواية لمسلم : « من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ » أى فإثْمُهُ عليه . وعمله مردود عليه .

ثم يبين الله تعالى ما حرمه على اليهود دون غيرهم فقال سبحانه :

---

(١) سورة يونس : الآيتان : ٦٩ ، ٧٠

(وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾)

المفردات :

(هَادُوا) : أى اعتنقوا اليهودية ودانوا بها .

التفسير

١١٨ - (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ . . .) الآية .

والمعنى : وعلى أمة اليهود خاصة دون سائر الأمم . حرمنا ما قصصناه عليك أيها الرسول ، من قبل نزول هذه الآية ، وذلك قوله تعالى فى سورة الأنعام : « وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وِإِنَّا لَصَادِقُونَ »(١) . وقوله تعالى فى سورة النساء : « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا »(٢) .

دلت الآيتان فى سورتى الأنعام والنساء كما نبهت إليها هذه الآية من سورة النحل ، على أن هذا التحريم إنما كان بسبب ظلمهم وعصيانهم . وكانوا يقولون : لسنا أول من حُرِّمت عليهم هذه الطيبات . وإنما كانت محرمة على نوح وإبراهيم ومنْ بعْدهما حتى انتهى الأمر إلينا . فكذَّبهم الله تعالى .

وقد نفى سبحانه ظلمه إياهم ، لأنه هو الحكم العدل الذى لا يظلم مثقال ذرة ، وصدق الله إذ يقول :

(ومَا ظَلَمْنَاهُمْ) : بذلك التحريم الذى كانوا هم السبب فيه .

(وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ) : حيث جنوا عليها بالكفر والمعاصى ، فعوقبوا دون سواهم بالحرمان من الطيبات بسبب ظلمهم لأنفسهم .

وفى الآية تنبيه على أن التحريم كما يكون دفعًا للمضرة ، يكون للعقوبة .

---

(١) الآية : ١٤٦ (٢) الآية : ١٦٠

(ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾)

المفردات :

(السُّوء) : لفظ جامع لكل قبيح ؛ من كفر ومعصية وإيذاء ويشمل الافتراء على الله عز وجل .

(بِجَهَالَةٍ) : أى بِسُوء معرفة بالله تعالى وشديد عقابه ؛ أو بطيش وغفلة وسفه .

التفسير

١١٩ - (ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوء بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ...) .

لما هدد الله تعالى المشركين بالعقوبة على قبائحهم من ضروب الكفر والمعصية ، بين فى هذه الآية أن قبائحهم - وإن عظمت وطال أمدها - لاتحول دون قبول التوبة منهم والفوز بمغفرته ورحمته سبحانه إذا رجعوا إليه وأنابوا وأصلحوا .

والمعنى : ثم إن ربك يامحمد للذين عملوا القبائح بجهالة وسوء معرفة بالله تعالى وشديد عقابه ؛ أو غير متدبرين فى العواقب ، لغلبة الشهوة والغفلة عليهم ؛ ثم أقلعوا عن سوء ما عملوه تائبين نادمين ، وأصلحوا أعمالهم واستقاموا على التوبة .

(إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ) :

أى إن ربك يامحمد من بعد التوبة عن عمل السوء مع الإقبال على الصلاح - إن ربك من بعد ذلك لعظيم المغفرة للتائبين المصلحين ، وواسع الرحمة بهم ، يثيبهم على الطاعة فعلا وتركًا ، فضلا منه وإحسانًا .

وتكرير قوله : « إِنَّ رَبَّكَ » لزيادة تأكيد الوعد ، وإظهار كمال العناية بإنجازه ؛ وللترغيب فى التوبة النصوح الصادقة ، فهى التى يتقبلها الله عن عباده ، وفى إضافة لفظ

(رب) إلى ضميره صلى الله عليه وسلم إشارة كريمة إلى كمال اللطف به صلى الله عليه وسلم ، ثم بالتائبين الصادقين . حيث تشير إلى أنه تعالى أكرمهم بسببه ، لأنهم من أتباعه .

(إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾)

المفردات :

(كَانَ أُمَّةً) : الأمة ؛ الجماعة الكثيرة ، والمراد أنه كان بمنزلة أمة فى الإيمان بالله وعبادته حيث كان رائد التوحيد فى أمة مشركة ولم تلن له قناة .

(قَانِتًا لِلَّهِ) : أى مطيعًا خاضعًا لله سبحانه وتعالى ، من القنوت وهو الطاعة مع الخضوع ،

(حَنِيفًا) : أى مائلا عن الباطل إلى الحق ، من الحَنَفِ وهو الميل .

(اجْتَبَاهُ) : أى اختاره واصطفاه .

التفسير

١٢٠ – (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

لما أبطل الله تعالى فى هذه السورة مذاهب المشركين : منَ ادعائهم الأنداد والشركاء له سبحانه وتعالى ، وطعنهم فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإفترائهم الكذب على الله فى

التحليل والتحريم ، مع قولهم نحن على ملة أبينا إبراهيم ، جاءت هذه الآية للثناء على إبراهيم ووصفه بصفات تدل دلالة قاطعة على أنه عليه السلام ، برىء من الشرك والمشركين وأنهم أعق الأبناء لأكرم الآباء .

والمعنى : إن إبراهيم كان أمة أى بمنزلة جماعة عظيمة فى الإيمان بالله وحده والإخلاص له فى العبادة . قال ابن عباس رضى الله عنهما : كان عنده من الخير ماكان عند أمة . ا هـ : وذلك لاستجماعه من الخيرات والفضائل مالا يكاد يوجد إلا متفرقًا فى أمة عظيمة .

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

فهو إمام الموحدين . وقدوة أهل اليقين ، نصب أدلة التوحيد ورفع أعلامه ، وخفض رايات الشرك وحطَّمْ أصنامه ، وبذل نفسه وأسلم وجهه لله رب العالمين . وقال مجاهد : سمِّى عليه السلام أمة ؛ لانفراده بالإيمان فى وقته مدةً ما . وفى صحيح البخارى ومسلم أنه قال لامرأته : ياسارَّة ، ليس على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك...

(قَانِتًا لِلهِ حَنِيفًا وَلَم يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

أى مطيعًا لله سبحانه ، مائلا عن كل دين باطل إلى دين الحق غير زائل عنه . (وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) فى أمر من أمور دينهم ،صرح بذلك مع ظهوره للرد على كفار قريش فى قولهم : نحن على ملة أبينا إبراهيم ؛ وزعمهم أنه عليه السلام كان على ما هم عليه .

١٢١ ـ (شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ ..) :

أى كان إبراهيم عليه السلام شاكرًا لنعم ربه كلها عليه . لم يخلَّ بشكر نعمة منها قولا أو عملا . وفى هذا تعريض بالمشركين ، وإيذان بأنهم فى شركهم بالله وإسنادهم النعم لشركائهم ليسوا على منهاج أبيهم إبراهيم عليه السلام .

(اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) :

أى اختاره ربه واصطفاه ، وهداه إلى الطريق الموصل إليه سبحانه وهو الإسلام : دين الله الذى أرسل به جميع رسله قال تعالى : « إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الْإِسْلَامُ »[1] . وقال سبحانه : « شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَاوَصَّى بِهِ نُوحًا والَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ »[2]

وإجتباءُ الله للعبد : تخصيصه إياه بفيض إلّهى يحصل له منه أنواع من النعم بلا سعى ولا اجتهاد ، ويكون للأنبياء عليهم الصلاة والسلام خاصة ؛ وقيل يكون لهم ولمن على سنتهم من الصديقين .

وهداية الله لإبراهيم عليه السلام ، كان لها أثران عظيمان : أحدهما فى نفسه ، والثانى فى قومه ، حيث دعاهم إلى دين الله وأرشدهم إلى آيات ربه .

١٢٢ - (وَآتَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً . .) الآية .

أى أعطيناه فى الدنيا نعمة حسنة إذ جعلناه قدوة لجميع أهل الأديانالسماوية ، وأورثناه ثناءهم عليه وحب الانتساب إليه ، تحقيقًا لدعائه عليه السلام إذ قال : « وَاجْعَلْ لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى الْآخِرِينَ »[3] . وللعلماءِ أقوال فى تفسير الحسنة التى أعطاها الله خليله إبراهيم فىالدنيا فعن الحسن — أنها النبوة وقيل هى الأولاد الأبرار على الْكِبر ، والمال الكثير ينفقه فى وجوه الخير والبر ، والعمر الطويل فى السعة والطاعة ، وقد من الله عليه بكل ذلك فى الدنيا .

والانتقال إلى ضمير المتكلم فى قوله سبحانه : (وَآتَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً) . لإظهار الاعتناء بشأنه ، وتفخيم مكانه عليه السلام .

(وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) :

أى داخل فى عداد إخوانه المرسلين ، الكاملين فى الصلاح ، ذوى الدرجات العلا ، تحقيقًا لدعوته إذ قال : « رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ »[4] .

---

(١) آل عمران ، من الآية : ١٩ (٢) الشورى ، من الآية : ١٣
(٣) الشعراء ، الآية : ٨٤ (٤) الشعراء ، الآية : ٨٣

ولما أثنى الله على خليله هذا الثناء العظيم ، قال لخاتم النبيين صلوات الله عليه وعليهم :

١٢٣ - (ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) :

وملة إبراهيم عليه السلام ، هى الإسلام المعبر عنه آنفًا بالصراط المستقيم ، والمقصود بها : العقائد وأصول شريعته ، فمحمد صلى الله عليه وسلم مأمور باتباعها دون فروعها فإنها خاصة بأمة إبراهيم عليه السلام ، وكل رسالة تشترك مع غيرها فى العقائد والأصول العامة ، وتختص بفروع من الشريعة تناسب عصرها واستعدادها . وذلك هو المقصود بقوله تعالى : « لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا »[1] .

وقوله تعالى : (وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) تكرير لما سبق من قوله : « وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » لزيادة التوكيد والتقرير . ولتنزيهه عليه السلام عما كانوا عليه من عقائد الشرك والضلال المبين .

(إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾)

المفردات :

(جُعِلَ السَّبْتُ) : المراد : فرض تعظيم يوم السبت وتقديسه .

التفسير

١٢٤ - (إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ . . .) الآية .

كان اليهود يزعمون أن تعظيم يوم السبت والتخلى للعبادة فيه من شعائر ملة إبراهيم عليه السلام ، وأنه كان من المحافظين عليه - فكذبهم الله تعالى ، وبين أنه لم يشرع ذلك

(١) سورة المائدة ، من الآية : ٤٨

التعظيم إلا لبنى إسرائيل فى رسالة موسى ، بعد إبراهيم عليهما السلام بمدة طويلة كما سيأتى بيانه .

والمعنى : ما فرض الله تعالى تقديس يوم السبت بالتخلى للعبادة فيه ، إلا على الذين اختلفوا فى تقديسه على نبيهم ، حيث أمرهم بتعظيم الجمعة فاختاروا السبت ، وهم اليهود . أخرج الشافعى فى الأم ، والشيخان فى الصحيحين – واللفظ للبخارى – عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « نحن الآخرون السابقون يوم القيامة ، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا [1] ثم هذا يومهم الذى فرض عليهم فاختلفوا فيه . فهدانا الله له . فالناس لنا فيه تبع : اليهود غداً والنصارى بعد غد » .

وقيل إن موسى عليه السلام لما جاءهم بتعظيم الجمعة اختلفوا فيما بينهم ، فأبى أكثرهم إلا السبت . وقالوا إنه اليوم الذى فرغ الله فيه من خلق السموات والأرض . ورضيت شرذمة منهم بالجمعة ، فأذن الله تعالى لهم بالسبت وابتلاهم بتحريم الصيد فيه ؛ وهكذا شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم .

وقد أطاع فريق منهم فكانوا لا يصيدون يوم السبت ، وعصى أكثرهم فكانوا يصيدون فيه ، فأبغضهم الله ولعنهم . وجعلهم فى خِسة القردة . قال تعالى : « وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ » [2] . وقال سبحانه : « فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ » [3]

---

(١) فى إحدى روايات الشيخين زيادة (وأوتيناه من بعدهم) والحديث رواه النسائى أيضا .

(٢) البقرة ، الآية : ٦٥ .

(٣) الأعراف ، الآية : ١٦٦ وقد قدمنا فى بيان المراد من قوله تعالى « كونوا قردة خاسئين » أنه إما على الحقيقة وأن الله تعالى حولهم قردة وإما أنه مجاز عن مسخ قلوبهم وصرفها عن الخير . راجع الوسيط فى تفسير الآية ٦٥ من سورة البقرة ، ط ثانية .

ثم جاء عيسى عليه السلام بتعظيم الجمعة كذلك ، فاختلف عليه النصارى ، وأبوا إلا الأحد ، وكأنهم إنما اختاروه لأنه مبدأ الخلق عندهم .

ثم جاء بتعظيم يوم الجمعة خاتم النبيين – صلوات الله وسلامه عليهم – لخير أمة أخرجت للناس ، فهداهم الله له . ففازوا بفضيلته . وحماهم الله تبارك وتعالى من الاختلاف فيه . ولله سبحانه الحمد والمنّة .

(وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) :

الخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم ، أو لكل من يصلح للخطاب ؛ أي وإن ربك سيقضي يوم الجزاء الحق بين المختلفين على نبيهم . أو المختلفين فيما بينهم ، فيجازي كُلًّا بما يستحقه من الثواب والعقاب .

(ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾)

المفردات :

(سَبِيلِ رَبِّكَ) : أي طريق ربك الموصل إلى مرضاته ، وهو الإسلام .

(بِالْحِكْمَةِ) : أي بالمقالة الحكيمة وهي الحجة الموصلة لليقين .

(الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) : أي النصيحة الجميلة المشتملة على الترغيب في الحق والترهيب من الباطل .

(وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) : أي وراجعهم بالطريقة التي هي أحسن في إظهار الحق .

التفسير

١٢٥ - (ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ...) :

بعد أن أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم باتباع ملة إبراهيم حنيفًا – بين له فى هذه الآية طريق الدعوة إليها .

والمعنى : ادع أيها الرسول جميع المكلفين الذين بعثت إليهم . ادعهم إلى الإسلام بالحجج المزيلة للشبهة ، الموصلة إلى اليقين ، وبالنصائح الجميلة المرغبة فى الحق والخير ، المنفِّرة من الباطل والشر ، ومن جادلك منهم فجادلهم بأحسن طرق المراجعة والمجادلة ، أى باللين والرفق ، كما راجع إبراهيم أباه وقومه ، وكما حاجّ الطاغية الذى آتاه الله الملك [١] .

وإنما لم يقل : ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن لأن الجدال ليس طريقًا أصيلًا فى الدعوة إلى الله عز وجل ، وإنما يكون عند المراجعة والمحاورة بقصد إظهار الحق والرجوع إليه والطمأنينة به ، لا لقصد إفحام الخصم وغلبته ، كما يتبع ذلك بين أهل الجدل والخصومة .

ذلك بأن منهج القرآن الحكيم فى دعوته وهدايته ، قائم على الحجج القاطعة ، والنصائح الرشيدة الهادية ، فى كل ما دعا إليه ، وما جاء به .. من وحدانيته تعالى وقدرته ، وبعثه الناس ليوم لاريب فيه « يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ » [٢] .

(١) إشارة إلى الآية الكريمة رقم ٢٥٨ من سورة البقرة .

(٢) سورة النحل ، الآية : ١١١

(إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) :

هذا إعلام من الله تبارك وتعالى ، بأن ليس على الرسول إلا البلاغ بالطريقة التى بينها له ، فأما ماوراء ذلك من حصول الهدى والضلال ، والجزاء عليهما ، فإلى الله تعالى وحده ، فإنه هو العليم بمن يبقى على الضلال ، وهو العليم بمن يهتدى إلى ربه ، فيجازى كلا بما يستحقه ، طبقاً لما اختاره لنفسه .

وتقديم الضالين فى قوله تعالى : (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ) لأن الكلام فيهم . وإيراد الضلال بصيغة الفعل الدال على الحدوث . لأن الضلال تغيير لفطرة الله التى فطر الناس عليها ، وذلك أمر عارض ، بخلاف الاهتداء فإنه ثبات على الفطرة ، فلذا جىء به على صيغة الاسم المنبىء عن الثبات ، ولا يخفى مافى التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره صلى الله عليه وسلم ، من اللطف والعناية .

(وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾)

التفسير

١٢٦ – (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ..) الآية .

سبب النزول :

عن أبىّ بن كعب رضى الله عنه قال : لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلا ، ومن المهاجرين ستة منهم حمزة رضى الله عنه ، فمثلوا بهم . فقالت

الأنصار : لئِنْ أصبنا منهم يوما مثل هذا لنربِيَنّ عليهم فى التمثيل ، فلما كان يوم الفتح نزل : (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَاعُوقِبْتُمْ بِهِ)الآية . فقال رجل .. لاقريش بعد اليوم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم .. كفوا عن القوم إلا أربعة .. أخرجه الترمذى .

وفى رواية عن أبىّ أيضا .. « ... فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . نصبر ولا نعاقب » والآية - بناءً على هذا السبب نزلت .. فى فتح مكة . وتسمى مدنية على الأرجح وهو أن كل مانزل بعد الهجرة فهو مدنى وإن نزل بمكة وقال القرطبى : وتبعه الألوسى : أطبق جمهور أهل التفسير أن هذه الآية مدنية لما شق على المسلمين ماراأوا من تمثيل المشركين بقتلاهم . فى غزوة أحد فتوعدوهم بأزيد مما فعلوا . إذا ظفروا بهم!! وقال النحاس : إنها مكية . والمعنى متصل بما قبلها من المكى اتصالاً حسنا . ثم قال القرطبى : ولكن ماقاله الجمهور من أنها مدنية أثبت . وساق حديثا رواه الدارقطنى عن ابن عباس مؤيدا لما ذهب إليه الجمهور من مدنيتها .

وسواء أكانت هذه الآية الكريمة مكية أم مدنية . وسواء أصح نزولها فى شأن التمثيل بحمزة أم لم يصح . فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب . .

ووجه اتصال هذه الآية بقوله تعالى قبلها : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ » الآية . أن الدعوة إلى الله سبحانه لاتكاد تخلو من مخاصمة الأعداء . . ومقابلتهم لها بالعداوة والإيذاء . لأنها تتضمن رفض عقائدهم الباطلة الموروثة . ونبذ عاداتهم السيئة الموروثة ، ولما كان هذا شديدا عليهم وباعثا لهم على الخصومة الشديدة ، فلهذا أمر الله تعالى نبيه وأصحابه أن يقابلوا إساءتهم بمثلها إن أرادوا عقابهم عليها - والمعنى : وإن أردتم أيها المؤمنون عقاب من يصدكم عن دين الله . ويعتدى عليكم وأنتم تدعونه إلى سبيل الله ، فعاقبوه بمثل ما فعل بكم . وما ناله منكم ، ولاتجاوزوا هذا المثل بحال ، كما قال سبحانه : «وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَاتَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَايُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ »[1] وليس مافعله العدو أولاً

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٩٠

عقابا ولكن العقاب هو الثانى ، لأنه هو الذى يرد به المسلمون عدوان العدو ، عقابًا له ودفاعا عن دينهم وأنفسهم ، وإنما سمى اعتداء العدو عقابا من باب مماثلة الكلام ومشاكلته . .[1] كما سمى جزاء الاعتداء اعتداء فى قوله تعالى : «فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَااعْتَدَى عَلَيْكُمْ»[2] وكما سمى جزاء السيئة سيئة فى قوله سبحانه : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها[3] » .

ولم يقتصر العدل الإلهى على طلب المماثلة فى العقوبة ، وعدم التجاوز فيها . بل حث على العفو والصبر ؛ فقال سبحانه :

(وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيرٌ لِّلصَّابِرِينَ) :

أى ولئن صبرتم أيها الداعون إلى الله تعالى . لصبركم هذا هو خير لكم فى دنياكم وآخرتكم من الانتصار بالمعاقبة ، فإن الصبر والعفو وكظم الغيظ من أمهات الفضائل التى يسمو بها العبد ، ويرفعه الله بها درجات ، ويرد بها عدوه الألد وليًّا حميما وصديقا مصافيا . . وإنما يحمل العفو عند القدرة ، وحيث تدعو إليه المصلحة فى عزة الإسلام وسماحته ، ثم أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر أمرا صريحا بعدما ندب إليه من قبل تعريضا فقال جل ثناؤه :

١٢٧ ـ (وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إلاَّ بِاللهِ . . .) الآية .

لأنه عليه الصلاة والسلام أولى الناس بعزائم الأمور ، لمزيد علمه بشئون ربه ، ووثوقه به أى اصبر أيها الرسول على ما أصابك من قومك ، من إعراضهم عن دعوتك ، وإيذائهم لك . . وما صبرك إلا بمعونته تعالى وتأييده وتوفيقه وتثبيته .

(وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ) : أى ولاتحزن على الكافرين وكفرهم بك وعدم متابعتهم لك ، كما قال تعالى : «فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ»[4] .

---

(١) المشاكلة التعبير عن الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته وهى فن من فنون البديع .

(٢) سورة البقرة ، من الآية : ١٩٤

(٣) سورة الشورى ، من الآية : ٤٠

(٤) سورة المائدة ، من الآية : ٦٨

(وَلَاتَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ) : أى ولا تكن فى حرج وضيق صدر من مكر الكفار بك ، فإن الله كافيك وحافظك منهم ، ومظفرك بهم ، وفى هذا تأكيد لتسليته صلى الله عليه وسلم ، ولأمر الله له بالصبر ، ثم ختم الله سبحانه هذه السورة الكريمة بتلك البشارة العظيمة ؛ بمعيته للمتقين المحسنين — والنبى إمامهم ، فقال عز من قائل :

١٢٨ — (إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ) :

والمعنى أن الله جلت آلاؤه ، مع الذين جمعوا بين فضيلتى التقوى والإحسان ، واستمروا عليهما . . والمقصود من معيته تعالى هنا أنه سبحانه يعينهم ويحفظهم من مكر الأعداء بهم ، وينصرهم عليهم ، فهى معية رعاية وحفظ . كالتى يشير إليها قوله تعالى لموسى وهارون وقد أرسلهما إلى فرعون : «لَاتَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ» [١] .والتى يشير إليها قول النبى صلى الله عليه وسلم للصديق وهما فى الغار ، كما حكى الله : «لَاتَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا» [٢] . ولاريب أن هذه المعية الخاصة أعلى وأجل من المعية العامة التى فى مثل قوله تعالى : «وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» [٣] .فإنها معية العلم والرقابة والمحاسبة ،وتلك معية العناية والرعاية والمحبة . وشتان مابينهما — ذلك وقد اشتملت خواتيم هذه السورة على تعليم حسن الأدب فى الدعوة وترك التعدى ، والأمر بالصبر على المكروه . وعظيم البشارة للمتقين المحسنين . وقد روى ابن جرير . . وغيره أن هرم بن حبان [٤] . قيل له عند الاحتضار أوصِ . فقال : إنما الوصية من المال ولا مال لى : وأوصيكم بخواتيم سورة النحل .

(١) سورة طه ، الآية : ٤٦

(٢) سورة التوبة ، من الآية : ٤٠

(٣) سورة الحديد ، من الآية : ٤

(٤) قائد فاتح من كبار الزهاد التابعين ولى بعض الحروب فى أيام عمر وعثمان رضى الله عنهما ومات فى إحدى غزواته .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة

محاسب / صلاح زكريا

رقم الإيداع بدار الكتب ١٦٧٩/١٩٨٠

الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية

٨٩٧١-١٩٨٠-٢٥٠٠٤


Bibliotheca Alexandrina
0399102